دوائر الإعادة ومراتب الإفادة

في شرح علوم الدين وأركانه الأربعة مجتمعة لا متفرقة

مع إعادة تحليل المسميات للعلوم من وجهة النظر الرباعية الشرعية

اسـم الكتاب: دوائر الإعادة ومراتب الإفادة في شـرح أركان الدين الأربعة مجتمعة لا متفرقة مع إعادة تحليل المسميات للعلوم من وجهة نظر الشرعية الرباعية
تأليف: أبوبكر بن علي بن أبي بكر المشهور
جميع الحقوق محفوظة بعقد واتفاق ©
الطبعة الثانية ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م
قياس القطع: ١٥ x ٢١
الرقم المعياري الدولي ISBN :
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية:

يمكن مراسلة المؤلف على موقعه الشخصي
alhabibabobakr.com

daralmueein
info@daralmueein.com
00962 796 118 792
www.daralmueein.com

تصميم الغلاف والرسومات التوضيحية في الكتاب: رائد يحيى عبدالعال

دوائر الإعادة ومراتب الإفادة

في شَرحِ عُلومِ ٱلدِّينِ وَأَرْكَانِهِ ٱلْأَرْبَعَةِ مُجْتَمِعَةً لَا مُتَفَرِّقَةً

مَعَ إِعَادَةِ تَحْلِيلِ ٱلْمُسَمَّيَاتِ لِلْعُلُومِ مِنْ وُجْهَةِ ٱلنَّظَرِ ٱلرَّبَّانِيَّةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ

بقلم خادم السلف

أبي بكر العدني ابن علي المشهور

بسم الله الرحمن الرحيم

المطلع القرآني

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ (الأشراط والعلامات والكوارث في الأمم)

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ (يدلهم على التربية الإيمانية الشرعية)

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ (الكتاب: القرآن ، الحكمة: السنة)

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (في الجاهلية الأولى)

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ (عدول الأمة ورجال سندها المتصل خلال مراحل التحولات)

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾

[سورة الجمعة: ٢-٤]

المطلع النبوي

« بَلِ ٱئْتَمِرُوا بِالمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ المُنْكَرِ ، حَتَّىٰ إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ - يعني - بِنَفْسِكَ ، وَدَعْ عَنْكَ العَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَىٰ الجَمْرِ ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ» .

وَفِي رِوَايَةٍ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّٰهِ.. أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ».

رَوَاهُ أَبُودَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ثَعْلَبَةَ الخُشَنِيِّ (٤٣٤١) وسنده صحيح

شاهد الحال

عُصْبَةَ الجِيلِ المُحَلَّىٰ بِالْأَمَلْ ... وَشَبَابَ العِلْمِ فِي كُلِّ مَحَلْ

مَظْهَرَ التَّغْيِيرِ فِي عَصْرِ الغُثَا ... وَمِثَالَ الخَيْرِ أَبْطَالَ العَمَلْ

أَزِفَ الوَقْتُ لِوَعْيٍ ثَابِتٍ ... مِنْ مَعِينِ الدِّينِ وَالشَّرْعِ الأَجَلْ

قَدْ كَفَانَا مَا عَرَانَا مِنْ بَلَا ... وَكَفَىٰ الإِسْلَامَ مشروعُ الفَشَلْ

عَبَثَ الأَعْدَاءُ فِي آمَالِنَا ... وَعَدَا الأَوْبَاشُ حَرْفًا وَجُمَلْ

وسُلِبْنَا خَيْرَ مَا قَدْ خَصَّنَا ... رَبُّنَا المَوْلَىٰ بِهَنَّاتِ الجَدَلْ

وَٱنْتَهَىٰ التَّفْكِيرُ مِنَّا جُمْلَةً ... كَدُمَىٰ الأَطْفَالِ فِي أَيْدِي الدُّوَلْ

لَمْ نَذُقْ طَعْمَ السَّلَامِ وَالرِّضَا ... بَلْ سُقِينَا الخَوْفَ مَشْرُوعًا وَحَلْ

عَادَ عَهْدُ الرِّقِّ مَدْعُومَ البِغَا ... فِي شِعَارَاتٍ لَهَا طَعْمُ العَسَلْ

نَرْشُفُ السُّمَّ الزُّعَافَ رَغْبَةً ... فِي حَيَاةٍ شَابَهَا سُمٌّ وَعَلْ

أَيُّ عَقْلٍ قَدْ وَعَىٰ مَأْسَاتَنَا ... وَأُولُو العَقْلِ ٱسْتُذِلُّوا بِالْكُلَلْ

كُلُّ حِزْبٍ فَرِحٌ فِي ذَاتِهِ ... وَيَرَىٰ مَا عِنْدَهُ أَعْلَىٰ مَثَلْ

كُلَّمَا قُلْنَا أَفِيقُواْ وَٱذْكُرُواْ وِحْدَةَ الإِسْلَامِ فَالمَطْلُوبُ جَلْ
خَلَدُواْ لِلأَرْضِ مِمَّا سَامَهُمْ مِنْ رُضَابِ العِجْلِ وَالعِجْلُ أَذَلْ
وَمَتَى المَغْشِيُّ يَوْمًا قَدْ صَحَا وَهْوَ فِي نَوْمَتِهِ سَاجِي المُقَلْ
يَا بَنِي الإِسْلَامِ عُودُواْ لِلْهُدَىٰ وَٱدْرُسُواْ القُرْآنَ مِنْ حَيْثُ نَزَلْ
وَٱقْرَؤُواْ سُنَّةَ طٰهَ المُصْطَفَىٰ بِلِسَانٍ عَالَمِيٍّ قد أَطَلْ
يَجْمَعُ الأَرْكَانَ جَمْعًا وَاحِدًا مِثْلَمَا جِبْرِيلُ لِلْهَادِي سَأَلْ

المؤلف

الإهداء

إِلَىٰ الَّذِينَ عَلَّمُونِي وَأَرْسَوْا ثَوَابِتَ العَقْلِ وَالقَلْبِ وَالجَوَارِحِ..

وَإِلَىٰ الغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُحْيُونَ مَا أَمَاتَ النَّاسُ..

وَإِلَىٰ المُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ مِنْ أُمَّةِ القُرآنِ وَالسُّنَّةِ..

وَإِلَىٰ كَافَّةِ الرَّاغِبِينَ فِي مُعَالَجَةِ الإِحْبَاطِ وَالأَغْلَاطِ الجَاثِمَةِ عَلَىٰ صُدُورِ الأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ فِي مَرْحَلَةِ الغُثَاءِ المُعَاصِرِ..

وَإِلَىٰ المُتَسَائِلِينَ عَنْ رِيَاحِ التَّغْيِيرِ وَمَوْقِعِهَا مِنْ فِقْهِ التَّحَوُّلَاتِ وَعَلَامَاتِ السَّاعَةِ..

أهدي هذا الكتاب..

المؤلف

وَجْهُ التَّنَاوُلِ

الحَمْدُ لِلّٰهِ العَالِمِ بِالمَكْنُونَاتِ، وَشَاحِنِ المُلْكِ وَالمَلَكُوتِ بِالآيَاتِ، وَفَاتِحِ أَبْوَابِ العَطَاءِ اللَّدُنِّيِّ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر:٢].

وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ نُقْطَةِ الانطْلَاقِ فِي عُلُومِ الإِبْلَاغِ وَالبَلَاغِ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِاللّٰهِ القَائِلِ: «**يَرِثُ هٰذَا العِلْمَ**[1] **مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ**[2]، **يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الغَالِينَ، وَانْتِحَالَ المُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الجَاهِلِينَ**»[3]. اللّٰهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَصِدْقِ يَقِينٍ وَسَلَامَةِ تَوَجُّهٍ وَتَفَهُّمٍ عَلَىٰ مُرَادِ اللّٰهِ فِي عِبَادِ اللّٰهِ وَآيَاتِ اللّٰهِ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ.

وَبَعْدُ؛ فهٰذِهِ رسالةٌ مختصرةٌ تشرحُ ما أَشَرْنا إليهِ في عنوان رسالتِنا «الإعادة»، وهي تُعنىٰ بما جمعناه عن دوائرِ قواعدِ ومرتكزاتِ العلوم التي يجبُ العلمُ بها مجتمعةً ومتفرقةً، من خلالِ دراسةِ حديثِ جبريلَ المعروفِ بـ «أمِّ السُّنَّةِ»، وهو الحديثُ الذي ظَلَّتْ قراءتُه وظلَّ شرحُه محصوراً على ثلاثةِ ثوابتَ يُطلق عليها «أركانُ الدين»، مع العلم أنّ الحديثَ مشتملٌ على أربعةِ أركانٍ وليس على ثلاثةٍ.

وعلى هذا الفهمِ الرباعيِّ جاءتِ الرسالةُ بقراءةٍ جديدةِ التناولِ عريقةِ

---

(١) والعلم في أصوله المعروفة في حديث (أم السنة) هو أربعة أركان.

(٢) والعدول هم حملة السند المتصل، ووراث الأبوة الشرعية أخلاقاً وعلمًا وعملًا.

(٣) «السنن الكبرى» للبيهقي (٢٠٩١١).

التواصلِ بوَحْدَةِ الحديثِ الموضوعيةِ، تقومُ في عصرنا وزماننا بتجديدِ الدعوة إلى الله في وسائلِ التعليمِ الشرعيِّ وتجديدِ وسائلِ التزكيةِ، كما تهتمُّ بالعلومِ النظريةِ والتطبيقيةِ وربطها بالديانةِ، ثم تُعَرِّجُ على كشفِ انحرافاتِ الأوعيةِ وفسادِ أساليبِ المعالجةِ الناطقةِ باسمِ الدين من خلالِ دراسةِ علمِ النقائضِ والنواقضِ وما يتعلقُ بها.

وقد حليناها بالأمثلة من الشواهد القرآنية والنصوص النبوية والأبوية قدر الطاقة، أي: الأحاديث وروايات آل البيت والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، مع عزوها للمصادر وتخريج الأحاديث وذكر الحكم عليها صحة وضعفا.

أسألُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَ ذٰلِكَ موافقاً لما يُرضيهِ سبحانه وتعالى، وأَنْ يَنْفَعَنِيَ والمسلمينَ بذلك.. إنه على ما يشاءُ قديرٌ وبالإجابةِ جديرٌ.

مَفْهُومُ الإِعَادَةِ

عنـد ملاحظـةِ الثمـراتِ العلميـةِ المكتوبـةِ في المؤلفـاتِ والمراجـعِ حولَ تفصيـلِ أركانِ الديـنِ، وجدنا أنَّ التدقيـقَ الواعيَ يؤكدُ رباعيـةَ الأركان وليس ثلاثيتَها ، وقد فَرَغْنَا من هذه المسـألة فيما سَـبَقَ مِنَ التَّنَاوُلِ[1]. وَإِنّما بقيَ علينا إعـادةُ تأصيـلِ الرباعيةِ مجتمعةً في وِحْدةٍ شـرعيةٍ واحدةٍ لا يَنْفَـكُّ بَعضُها عن بعـضٍ، سـواءً في سـردِ نصِّ الحديـثِ المعروفِ بـ«أمِّ السُّـنَّةِ» أو فـي تقريرِه وشرحِه والاستدلالِ بما ورد فيه .

والتأصيلُ الذي نحن بصدِده يأتي على الكيفيةِ التالية:

العلومُ الشرعيةُ المرتبطةُ بالركنيةِ الرباعيةِ :

تنقسـمُ **العلومُ الشـرعيةُ** في قراءةِ حديثِ جبريلَ عليه السلام الحـاوي لأركانِ الدينِ

(١) وذلـك في كتابنـا «الركن الرابع مـن أركان الدين: الثوابت والمتغـير» ، وقد طبع، ثم بعد فراغنـا من كتابنا هـذا «دوائر الإعادة» لخصنا مفاهيم هذا العلم في كتيبٍ مبوبٍ بشـكلٍ منهجيٍّ على بضع وعشرين درساً سميناه «النبذة الصغرى» ، وجعلناه مقررا للدراسة في أربطتنا وحلقاتنا .

إلى قسمينِ:

* علومُ الثوابتِ ، وهي الإسلام و الإيمانُ والإحسانُ.

* علمُ المتغيراتِ ، وهي علامات الساعة وما ترتب على العلم بها.

ثم تنقسم **علوم الثوابت** إلى قسمين :

* مَرَاتِبِ عِلْمَيِ الإِيْصَالِ ، وهي ما يخص دراسة أركانِ الإسلامِ وأركانُ الإيمانِ.

* مَرَاتِبِ عِلْمِ الوُصُولِ ، وهي ما يخص دراسة علمِ الإحسانِ «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

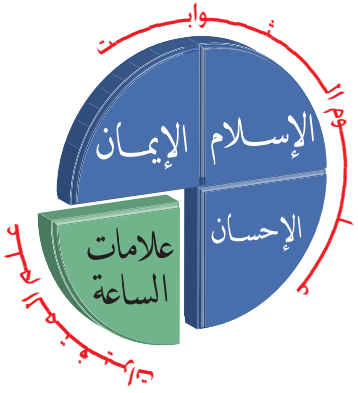

تَفْصِيلُ مَرَاتِبِ عِلْمَيِ الإِيْصَالِ: (وَسَائِلِ التَّعَبُّدِ وَمَسَائِلِ الإِيمَانِ)

الرُّكْنَيْنِ: الأَوَّلِ وَالثَّانِي

أُطْلِقَ مسمى «الإيصالِ» على مراتبِ العلمِ وثمراته لا على العلمِ وحدَه ، حيثُ إنَّ العلمَ بالإسلامِ والإيمانِ كنصٍّ شرعيٍّ أمرٌ مفروغٌ منه ومُتَحقِّقٌ ومخدومٌ في الأمةِ منذُ عهد التدوينِ ، وكان المُتَلَقِّي في سابق العهد يجمعُ بين

العلـمِ وتحقيقِه حتى بدايـاتِ عهدِ الغثاءِ الموعودِ، فحصـلَ الفصلُ بين أركان الإسـلامِ وبينَ تحقيقِها العَمَلِيّ ،وبيـن أركان الإيمان أيضاً وتحقيقها العملي ، وأثمـرَ هذا الفصلُ انعـدامَ الوحـدةِ الموضوعيةِ بين العلمِ بالإسـلامِ والإيمانِ وثمراتِهما العمليةِ.

بل أدى ذلك إلى غيابِ الحقائقِ المترتبةِ على دراسةِ الحقيقةِ الفعليةِ لأركانِ الإسـلامِ الخمسـةِ وأركانِ الإيمـانِ السـتَّةِ ، وحـلَّ محلَّها التسـويفُ والشـكُّ وخصوصاً في طلّابِ المدارسِ الحديثةِ المسيَّسةِ .

وكان من ثمراتِ هذا الاهتمامِ السلبيِّ نجاحُ حَمَلاَتِ الهندسةِ الِاسْتِشْـراقِيّةِ مَالِكَـةِ قَـرَارِ المرحلـةِ وداعمـةِ القـوى المتحركـةِ دِينِيـاً ودُنيويـاً ، وكان مـن نجاحاتها مشـروع «التَّحْرِيـشِ» ضِدَّ المـدارسِ الأبويةِ التقليديـةِ الجامعةِ بين حقائقِ العِلْمَيْنِ المشـارِ إليهما سَلَفاً، وهي المدارسُ المرتبطةُ بمرحلةِ الخلافةِ الإسـلاميةِ، بصرفِ النظرِ عما حَصَلَ فيها من النواقضِ والنقائضِ التي صارتْ ذريعةً وحجةً لطمسِ هويتِها التاريخيةِ والدينيةِ، بواسطةِ سياسةِ «المنافسةِ» بين المدرستينِ: الحديثةِ المدعومةِ ، والقديمةِ المذمومةِ.

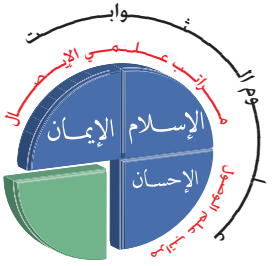

تَفْصِيلُ مَرَاتِبِ عِلْمِ الوُصُولِ (مَقَامَاتُ التَّحَقُّقِ وَثَمَرَاتِ الأَعْمَالِ)
الرُّكْنُ الثَّالِثُ

ومعنى مراتبِ هذا العلمِ: ما أثمرتْهُ العباداتُ والطاعاتُ والقِيَمُ والأخلاقُ الإسلاميةُ في مَرْتَبَتَيِ «الإسلامِ والإيمانِ»، وما يتحتمُ به من التحققُ بالأحوالِ والمقاماتِ الشرعيةِ، من خلالِ التدرجِ في المراتب العلمية والعملية المنبثقة عن المعارف الإسلاميةِ والإيمانية الموصلة إلى المرتبة الإحسانية والإيقانيةِ، ومقصودُنا بـ«الإيقانيّةِ» علومِ اليقينِ الثلاثةِ: (عِلْمِ اليَقِينِ، عَيْنِ اليَقِينِ، حَقِّ اليَقِينِ).

وَهِيَ مراتبُ علومِ الإحسانِ المفصِّلة لمعنى قوله ﷺ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[1]، وبها تظهرُ مراتبُ ومقاماتُ الصِّديقيةِ الكبرى المشارِ إليها في الحديثِ القدسي: «**وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**»[2]، وهي بلا شكٍّ المرتبةُ المتحققةُ دون مرتبةِ النبوةِ الخاصةِ بالأنبياءِ عليهم السلام، قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩].

* فالمرتبةُ الأولى: مرتبةُ **النبوةِ** التي لا يُشَارِكُ الأنبياءَ فيها أحدٌ، وضابطُها: الوحيُ والعصمةُ والأخلاقُ.

---

(١) «صحيح مسلم» (٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٥٠٢).

* والمرتبةُ الثانيةُ: مرتبةُ **الصِّدِّيقِيَّةِ**، وفيها يشاركُ الأنبياءَ مَن دُونَهم من أهلِ الصِّديقيةِ الكبرى، وضابطها الحفظُ والتوفيقُ والمراقبةُ لله حقَّ مراقبتِه على صفة التدرج في مراتب اليقين السالف ذكرها، كما هو في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾[مريم:٤١]، والصِّديقيةُ يتحققُ بها الأولياءُ والعارفون باللهِ تعالى من الرجالِ والنساءِ حيثُ وصفَ اللهُ مريمَ عَلَيۡهَا ٱلسَّلَامُ بقولِه تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞ﴾[المائدة:٧٥]، ووصفَ اللهُ عبادَه المؤمنين باللهِ ورسلِه على وجهِ التحقيقِ بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾[الحديد:١٩].

وقد انقطعتْ هذه المراتبُ في المعرفةِ السائدةِ اليومَ بانقطاعِ التحققِ بعلمِها، وبقيتْ معرفتُها اللفظيةُ ومصطلحاتُها الإحسانيةُ وقِلَّةٌ من أهلِها بين «الخمولِ والأُفولِ».. حيثُ لا يوجدُ على ظهرِ الأرضِ اليومَ مَن يُمنْهِجُ للأجيالِ المسلمةِ هذه العلومَ بحقائقِها الإحسانيةِ والإيقانيةِ تربيةً وتزكيةً إلا من رحمَهُ اللهُ، بل تحولَ الأمر إلى ما يناقضُ ذلك مع شمولِ المدارس الإعلامية والأجهزة الأفلامية، وهي الوسائلُ الشيطانيةُ في غالب مخرجاتِها الممنهجةِ والمبرمجةِ للمغالبة والمنافسة.

وربما بقي شيءٌ من مظاهرِ التزكيةِ والتربيةِ في حدّها الأدنى مختلطةً بالشوائبِ والإفراطاتِ لدى بعضِ المنهجيات الإسلامية المتعنتة أو الطرقِ الصوفيةِ الميتةِ[1]، تلك الطرقُ التي لا تستطيعُ إقامةَ التوازنِ الاجتماعيِّ

(١) وصف الطرق الصوفية بالميتة ليس للذم والتحقير، وإنما لتقرير الحالة التي بلغناها جميعاً من الوهن والغثاء والتقصير، وانحصار الطرق والمريدين في دوائر الخلوات والزوايا

والفكريِّ والعلميِّ مع مـدارسِ القبضِ والنقضِ من جهةٍ ، ومدارسِ العلمانيةِ والعلمنةِ والعولمةِ من جهاتٍ أخرى.

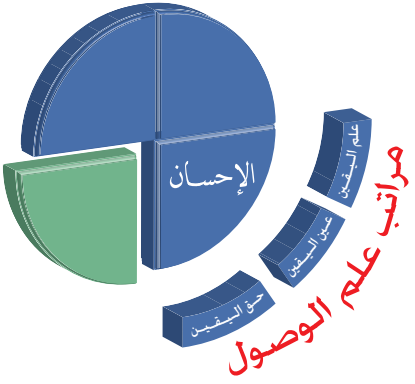

منقطعـين لسـبب وآخر عـن الدعوة إلى الله بالحكمـة والموعظة الحسـنة ، ومتأخرين عن طلب العلوم وتحقيق ثمراتها الشرعية على الوجه المطلوب.

تَفْصِيلُ عِلْمِ الْمُتَغَيِّرَاتِ (فِقْهِ التَّحَوُّلَاتِ): الرُّكْنِ الرَّابِعِ

يطلق علم المتغيرات على ما يخص (فقه التحولات)، وهو الفقه الذي يُعنى بتحليل وتفصيل علوم الركن الرابع من أركان الدين وهو (العلم بعلامات الساعة).

وأول ما يجب معرفته في تفصيل هذا العلم هو **الركنان والأقسام** :

رُكْنَا عَلَامَاتِ السَّاعَةِ

وقد ورد خبرهما في نص حديث جبريل عليه السلام :

* الأول : «**أن تلد الأمة ربتها**»، وفي رواية: «**ربها**».

وهذا الركن يبرز كل ما يختص من تحول ومتغيرات بشأن قرار العلم والاعتقاد.

* الثاني: «**أن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان**» ، وهذا الركن يبرز كلما يخص المتغيرات بشأن الحكم والاقتصاد .

وبدراسة هذين الركنين وما تفرع عنهما من أقسام يعرف العلم بعلامات الساعة.

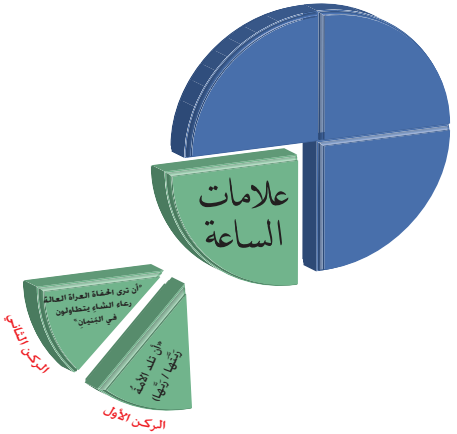

أَقْسَامُ العِلْمِ بِعَلَامَاتِ السَّاعَةِ

* **القسم الأول** : العلم بعلامات الساعة الكبرى
* **القسم الثاني** : العلم بعلامات الساعة الوسطى
* **القسم الثالث** : العلم بعلامات الساعة الصغرى

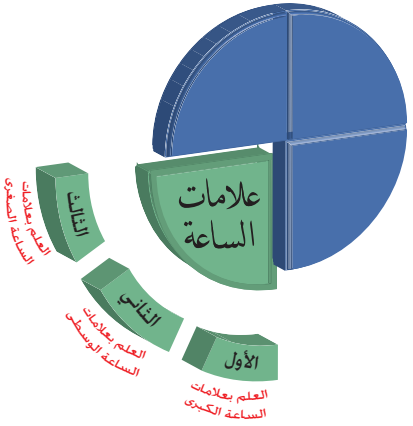

وهذه تسمى (أقسام علامات الساعة) كما سيأتي تفصيلها، وفقهها الشرعي هو (فقه التحولات) ، وهو الفقه الحاوي على مادة العلم الشرعي من الكتاب والسنة في كل ما يخص نماذج العلامات والأشراط والفتن ومضلاتها والملاحم والبشارات .

وتتلخص **نماذج هذه العلوم** في التالي[1]:

* فِقْـهُ النَّوَاقِـضِ وَالنَّقَائِضِ وَمُضِلَّاتِ الفِتَنِ وَأَسْـبَابِ الوِقَايَـةِ مِنْهَا في الحُكْمِ والعِلْمِ والإقْتِصَادِ.
* فِقْهُ الإِشَارَاتِ وَالبِشَارَاتِ وَالنُّذُرَاتِ والحَصَانَاتِ وَشَرَفِ العَدَالَةِ وَالسَّنَدِ.
* فِقْهُ مُسْتَجَدَّاتِ العُلُومِ النَّظَرِيَّةِ وَالتَّطْبِيقِيَّةِ وَالثَّقَافَاتِ ، وَمَا يَخُصُّ الإِعْجَازَ العِلْمِيَّ وَالمَعَارِفَ المُتَنَوِّعَةَ السَّلْبِيَّةَ وَالإِيجَابِيَّةَ (النَّظَرِيَّاتِ وَآلِيَّاتِ التَّطْبِيقِ).
* فِقْهُ الأَشْرَاطِ الكَوْنِيَّةِ وَالمَلَاحِمِ.
* فِقْهُ الرَّبْطِ الشَّرْعِيِّ بَيْنَ الدِّيَانَةِ وَالتَّارِيخِ.

وسيأتي تفصيل هذه الأقسام بالتفصيل لاحقاً.

---

(١) للاستزادة فقد أفردنا لتفصيل الكلام في نماذج هذه العلوم كتابنا «الإقليد في فتح أبواب العلوم الخمسة المرتبطة بفقه تحولات التليد».

فِقْهُ النَّوَاقِضِ وَالنَّقَائِضِ وَأَسْبَابُ الفِتَنِ ومُضِلاَّتِها

وهـو أحد فروع علم المتغيرات ، **والنواقض لغةً** : جمع ناقض ، مأخوذة من (نَقَضَ يَنْقُضُ) ، وهو ما يزيل الشـيء من أصله، وفي **اصطلاح فقه التحولات**: اِسْـمٌ لِكُلِّ مَا يَنْقُضُ العُرَىٰ في الحُكْمِ وَالعِلْمِ والأعمالِ والقِيَمِ وثوابتِ الإسلامِ والإيمـانِ والإحسـانِ بِعَوَامِلِ الفِتَـنِ ومضلاتها[1]. كما أشـار إلى ذلك حديث رسـول اللـه ﷺ : «**لَتُنْقَضَنَّ عُرَىٰ الإِسْـلَامِ عُـرْوَةً عُـرْوَةً**»[2]، ومن ذلك نقض الحكم والعلم ، ونقض الأعمال ، ونقض العلاقات الشرعية، ونقض القيم.

أمـا **النقائض لغةً** فجمع نقيض ، مأخوذة من صيغة المفاعلة (نَاقَضَ يُنَاقِضُ) ، أي: جاء بما يخالف المألوف ويعارضه.

وأمـا فـي **اصطلاح فقه التحولات** فاسْـمٌ لِكُلِّ مَوْقِـفٍ ضِدِّيٍّ يَصْـدُرُ مِنْ فَرْدٍ أَوْ جَمَاعَـةٍ يُخَالِـفُ العَمَلَ الشَّرْعِيَّ السَّـائِدَ ، وَيَـأْتِي بِضِدِّهِ بِدَلِيلٍ مُنَاقِـضٍ أَوْ فَهْمٍ مُعَـارِضٍ ، كما ورد في حديث : «**لَيَأْتِيَنَّ عَلَـىٰ النَّاسِ زَمَانٌ يُكَذَّبُ فِيهِ الصَّادِقُ،**

---

(١) الفِتَنُ هي الابتلاءاتُ العامّةُ التي تُصيبُ الفردَ أو الأمَّةَ ، ويكونُ بها حصولُ انحرافٍ أو تحوُّلٍ مُخالِفٍ لأمرِ الشّريعةِ ، ومن الفِتَنِ ما هو اختبارٌ للمسلمِ ينالُ به الثَّوابَ والأجرَ عند صبرِهِ واحتسابِه لله تعالى كما هو في فِتنةِ الأهلِ والمالِ والوَلَدِ ، ومن هذا النَّموذَجِ ما أشار اللهُ بـه للأنبياء : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾وقال تعالى لسَـيِّدِنا موسى : ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾[طه: ٤٠].

وأمـا مُضِـلّاتُ الفِتَنِ فهي ما خرج به الفردُ أو الجماعـةُ أو الأُسرةُ أو القبيلةُ أو الأُمَّةُ عن جادّةِ الطَّريقِ المشروعةِ إلى خِدمةِ الشَّرِّ والدَّجَّالِ والشَّيطانِ .

(٢) «مسند أحمد» (٢٢١٦٠) .

وَيُصَدَّقُ فِيهِ الكَاذِبُ، وَيُخَوَّنُ فِيهِ الأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنُ الخَؤُونُ، وَيَشْهَدُ المَرْءُ وَلَمْ يُسْتَشْهَدْ، وَيَحْلِفُ وَإِنْ لَمْ يُسْتَحْلَفْ، وَيَكُونُ أَسْعَدُ النَّاسِ بِالدُّنْيَا لُكَعُ ابْنُ لُكَعٍ لا يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ»[1].

فالعاملون على صفةِ السلبيةِ يشتغلون بنقضِ العرى وإشاعةِ الفرقةِ بالمتناقضاتِ والخلافياتِ حتى يبلغوا أهدافاً محددةً في الشعوبِ المستغفلَةِ خدمةً للشيطانِ والدجالِ، وهي نوع من الفتن المضلة.

وتنقسم النقائض والنواقض إلى فتن ومضلات فتن، وقد تتداخل الفتن والأشراط، وهي كثيرة منها:

١- فتن متعلقة بالذوات والأشخاص والفئات، كفتنة المسيخ الدجال[2]، ويأجوج ومأجوج في العلامات الكبرى[3]، وفتنة بني أمية[4]، وفتنة أغيلمة قريش[5]، وبني العباس[6]، وفتنة الخوارج[7]، وفتنة الزنج[8]،

---

(١) «المعجم الأوسط» (٨٦٤٣) و«المعجم الكبير» (٢٣/ ٢١٤) (٧١١).

(٢) كقوله ﷺ: «**ليسَ مِن فِتنةٍ صغيرةٍ ولا كبيرةٍ إلا تُصنَعُ لِفتنةِ الدَّجَّالِ**» «مسند أحمد» (٢٣٣٠٤)، و«الصحيح المسند» للوادعي (٣١٧).

(٣) كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾ [الأنبياء:٦٩].

(٤) كقوله ﷺ: «**الخلافة ثلاثون عاماً، ثم يكون بعد ذلك ملكٌ**» مسند أحمد (٢١٩١٩).

(٥) كقوله ﷺ: «**هلاك أمتي على يدي غلمة من قريش**» «البخاري» (٣٦٠٥).

(٦) كقوله ﷺ: «**ليكونن في ولد العباس ملوك يلون أمر أمتي يعز الله تعالى بهم الدين**» ذكره الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» (٧٧٢١) وصححه، وعزاه للدارقطني.

(٧) كقوله ﷺ: «**الخوارج كلاب النار**» «سنن ابن ماجه» (١٣٧) قال الألباني: صحيح.

(٨) روي أن عليا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**ألا إن خراب بصرتكم هذه يكون بالريح**» ثم عرف

وجور الحكام[1]، وفتنة الولد والزوجة والأهل[2].

٢- فتن متعلقة بالأزمنة وأحداثها السياسية، كنبح كلاب الحوأب في قصة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وفتنة الجمل[3]، والأحلاس، والسراء، والدهيماء[4]،

المحدثون أنها تصحيف والصواب «**يكون بالزنج**» بعد مئتي سنة لما عاينوا أمر الزنج. انظر «تصحيفات المحدثين» لأبي أحمد الحسن العسكري (١: ٨٢).

(١) كقوله ﷺ: «**أعيذك بالله يا كعب بن عجرة من أمراء يكونون من بعدي، فمن غشي أبوابهم فصدقهم في كذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، ولا يرد علي الحوض**» «سنن الترمذي» (٦١٤).

(٢) كقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:٢٨]، وقوله ﷺ: «**يأتي على الناس زمان لا يَسْلَمُ لذي دين دينه إلا من هرب بدينه من شاهق إلى شاهق ومن جحر إلى جحر، فإن كان ذلك كذلك لم تنل المعيشة إلا بسخط الله، فإذا كان ذلك كذلك كان هلاك الرجل على يدي زوجته وولده، فإن لم يكن له زوجة ولا ولد كان هلاكه على يدي أبويه، فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يدي قرابته أو الجيران**» قالوا: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «**يعيرونه بضيق المعيشة، فعند ذلك يورد نفسه الموارد التي يهلك فيها نفسه**» «الزهد الكبير» للإمام البيهقي (٤٣٩).

(٣) كقوله ﷺ: «**ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأدبب، تخرج فتنبحها كلاب الحوأب، يقتل عن يمينها وعن يسارها قتلى كثير، ثم تنجو بعد ما كادت**» «مسند البزار» (٤٧٧٧) «السلسلة الصحيحة» للألباني (١/ ٨٥٣).

(٤) كقوله ﷺ: لعبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**هي هَرَب وحَرَب، ثم فتنة السراء، دخنها من تحت قدميْ رجل من أهل بيتي، يزعم أنه مني، وليس مني، وإنما أوليائي المتقون، ثم يصطلح الناس على رجل كورك على ضلع، ثم فتنة الدهيماء لا تدع أحداً من هذه**

ومقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]، ومقتل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]، ومقتل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،[3] ووقعة الحرة[4]، وفتنة ابن الزبير[5]، وتداعي الأمم[6]،

الأمة إلا لطمته لطمة» «سنن أبي داود» (٤٢٤٢) وصححه الألباني .

(١) كما ورد أن النبي ﷺ صعد أُحُداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فرجف ، فقال: «**أُثبُتْ أُحُد .. فإنما عليك نبي، وصديق ، وشهيدان**» «صحيح البخاري» (٣٦٩٩).

(٢) كقول علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «**والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لتخضبن هذه من هذه**» للحيته من رأسه . صححه البيهقي في «دلائل النبوة» (٦: ٤٣٩).

(٣) كقوله ﷺ : «**لا تبكوا هذا**» يعني: حسيناً ، فكان يوم أم سلمة ، فنزل جبريل ، فقال رسول الله ﷺ لأم سلمة : لاتدعي أحدا يدخل ، فجاء حسين فبكى فخلته يدخل فدخل حتى جلس في حجر رسول الله ﷺ فقال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ : إن أمتك ستقتله. قال : «**يقتلونه وهم مؤمنون بي ؟**» قال : نعم، وأراه تربته . «المعجم الكبير» للطبراني (٨٠٩٦) وذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٣: ٢٨٩) وحسنه.

(٤) كقول سعيد بن المسيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وقعة الحرة: «**ثُمَّ وقعت الفِتنَةُ الثّانِيَةُ -يعني الحَرَّةَ- فلم تُبقِ من أصحابِ الحُدَيبِيَةِ أحداً**» «صحيح البخاري» (٤٠٢٤) .

(٥) كقول ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لرجل سأله (أين يقاتل؟ مع الحجاج أو مع الزبير) : مع أيِّ الفَريقَين قاتلتَ فَقُتِلتَ في لَظَىً. «المستدرك» للحاكم (٨٤٥٢) .

(٦) كقوله ﷺ : «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**». فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : «**بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم الوَهَن**» . فقال قائل : يا رسول الله ! وما الوَهَن ؟ قال : «**حب الدنيا وكراهية الموت**» «سنن أبي داود» (٤٢٩٧) والألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٨١٨٣) .

وضياع الأمانة وتوسيد الأمر إلى غير أهله[١] .

٣- فتن متعلقة بأمر الدين واندراسه[٢]، كفتنة بيع الدين بالدنيا، والفرار بالدين هروباً من الفتن[٣]، وقبض العلم[٤].

٤- فتن متعلقة بالمال والاقتصاد، كفتنة التنافس على الدنيا بذريعة الشرك[٥]، أو حب المال[٦] .

---

(١) كقولـه ﷺ :«**إذا ضُيِّعَـت الأمانَةُ فانتظرِ السَّـاعةَ**» قال : وكيفَ إضاعتُها يا رسـولَ الله ؟ قال: «**إذا أُسنِد الأمرُ إلى غيرِ أهلِهِ فانتظرِ الساعةَ**» «صحيح البخاري» (٦٤٩٦).

(٢) وفي الحديث عن سيدنا علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ : «**يوشك أن يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ، ولا يبقى من القرآن إلا رسمه**». «السنن الواردة في الفتن للداني» (١٧٦٣) «شعب الإيمان» (١٧٦٣) .

(٣) كقولـه ﷺ :«**يأتـي على الناس زمان ، خير مال الرجل المسـلم الغنم ، يتبع بها شـعف الجبال ومواقع القطر ، يفر بدينه من الفتن**» «صحيح البخاري» (٦٤٩٥).

(٤) كقوله ﷺ :«**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يُبْقِ عالماً اتخذ الناس رُؤُوسـاً جُهَّالاً ، فسُـئِلُوا ، فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا**» . «صحيح البخاري» (١٠٠).

(٥) كقوله ﷺ في آخر خطبة له على المنبر : «**وإني لسـت أخشـى عليكم أن تشركوا ، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها**» . قال الراوي عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : فكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله ﷺ ، «صحيح البخاري» (٤٠٤٢).

(٦) كقولـه ﷺ : «**إن هذا الدينار والدرهم أهلكا من كان قبلكم ، ولا أراهما إلا مُهلِكَيْكُم**» «المعجم الأوسـط» للطـبراني (٢٠٢٢) ، رواه في «مجمع الزوائـد« (١٠: ٢٤٥)، وقال: إسـناده حسـن ، وفي «تخريج أحاديث الإحياء» للعراقي: «**لكل أمة عجل ، وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم**» (١: ٢٥٠).

٥- فتن متعلقة بالهوى والشح والعناد[١] .

٦- فتن متعلقة بالهرج والدماء وطغيان الشهوات[٢].

٧- فتن الاستحسان للكفار واستتباع الأمم[٣].

٨- فتن متعلقة بالناحية والجهة الجغرافية، كفتنة المشرق ، وفتنة قرن الشيطان، وفتنة نار اليمن[٤].

---

(١) كقولـه ﷺ : «**إذا رأيـت شـحاً مطاعاً وهوى متبعـاً ودنيا مؤثرةً وإعجـاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بنفسـك ودع عنك العوام**» «سـنن أبي داود» (٤٣٤١) وسـكت عنه ، وما سـكت عنـه فهو صالـح، أي: صححه، وفي «مجمـع الزوائـد» رواية : «**إن الفتنة تُرسَـل ويُرسَـلُ معهـا الهـوى والصبر، فمن اتبـع الهوى كانت قتلته سـوداء، ومـن اتبع الصبر كانت قتلته بيضاء**» (٧: ٣٠٨) .

(٢) كقوله ﷺ في حديث مسلم : «**والذي نفسي بيده ! لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يـوم ، لا يـدري القاتل فيما قَتَل ، ولا المقتول فيم قُتِـل ، فقيل : كيف يكون ذلك ؟ قال : الهَـرْجُ.. القاتـل والمقتـول في النـار**» (٢٩٠٨) ، وحديث : «**ألا إن بين يدي السـاعة الهـرج**» قيل: يا رسـول الله وما الهرج ؟ قال: «**القتل والكـذب**» مرتين. رواه البوصيري في «إتحاف الخيرة المهرة» (٨: ٧٠) وقال : إسـناده صحيح. وفي «سـنن أبي داود» بإسـناد صحيح «**وإنما أخاف على أمتي الأئمةَ المضلين ، وإذا وضع السـيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة**» (٤٢٥٢).

(٣) كقوله ﷺ في حديث البخاري : «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم**» (٧٣٢٠).

(٤) كقولـه ﷺ فيما رواه أبو داود (٤٣١١) بإسـناد صحيح «**تخرج نـار من اليمن ، من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر**» .

٩- فتنة الأئمة المضلين وفتنة المشاركة في الأحداث[١].

١٠- فتنة رفع العقول وانتكاس القلوب[٢].

١١- رفع الألفة وكثرة الوشاية والتجسس[٣].

---

(١) كقوله ﷺ: «**تكون فتنة النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان فيها خير من القائم. والقائم فيها خير من الساعي**» «صحيح مسلم» (٢٨٨٦)، وفي «مسند أحمد» (٦٩٨٠)، و«سنن ابن ماجه» (٣٩٦٧)، و«سنن أبي داود» (٤٢٦٥): «**إنه ستكون فتنة وتستنظف العرب؛ قتلاها في النار، واللسان فيها أشدُّ من وقعِ السّيف**» وصححه.

(٢) كقوله ﷺ: «**ألا إن بين يدي الساعة الهرج**»، قيل: يا رسول الله وما الهرج؟، قال: «**القتل والكذب**» مرتين، قالوا: يا رسول الله فوالله إنا لنَقْتُل في العام الواحد أكثر من كذا وكذا، قال: «**ليس بقتلكم المشركين ولكن قتلا يكون بينكم معشر الإسلام، حتى إن الرجل ليقتل أخاه.. حتى إن الرجل ليقتل أباه..**» قالوا: وفينا كتاب الله؟ قال: «**وفيكم كتاب الله**»، قالوا: ومعنا عقولنا؟، قال: «**تختلج عقول عامة أهل ذلك الزمان ويخلف لها هباء من الناس، يحسبون أنهم على شيء وليس هم على شيء**» ـ قال الراوي أبو موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: فوالله ما أراها إلا مدركتي وإياكم، وما لي ولكم منها مخرج فيما عهد إلينا نبينا إلا أن نخرج منها كيوم دخلنا. «مسند أبي يعلى» (٧٢٤٧). وعن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**أخاف عليكم فتناً كأنها الدخان، يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه**» «الفتن» لنعيم بن حماد (١١٧).

(٣) روى البخاري في «الأدب المفرد» (٢٦٣) عن عمير بن إسحاق قال: كنا نتحدث أن أول ما يرفع من الناس الألفة. وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تكون فتنة النائم فيها خير من المضطجع، والمضطجع فيها خير من القاعد، والقاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الراكب، والراكب فيها خير من المُجْرِي، قتلاها كلها في النار**»، قلت: يا رسول الله ومتى

١٢- شيوع الكذب والإنفاق عليه وسفك الدماء واللعن[١].

وأما العاملونَ على صفةِ الإيجابيةِ فيدرسون عِلْمَ النواقضِ والنقائضِ من أصولِه الشرعيةِ التي تحدَّث عنها من لا ينطقُ عن الهوىٰ ﷺ، وهو «فقه التحولات»، فيتعرفون به على موقعِ السلامةِ وموقعِ الندامةِ، ويستطلعون ما أخبر به ﷺ في الأمة من العلاماتِ والأشراطِ والفتنِ ومضلاتِها، فيحذَرون ويحذِّرون، كما جاء في حديث سيدنا حذيفةَ بنِ اليَمَانِ: «**كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنْ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي**»[٢].

فِقْهُ الإِشَارَاتِ وَالبِشَارَاتِ وَالنَّذَارَاتِ وَالحَصَانَاتِ وَشَرَفِ العَدَالَةِ وَالسَّنَدِ

ويطلقُ هذا التعريفُ على ما تناثرَ من أحاديثِ علاماتِ الساعةِ المتناولةِ للبشاراتٍ والإشاراتٍ وتنفساتِ المراحلِ من العلاماتِ الصغرى والوسطى والكبرى، سواءً ما كان منها على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ أو ما كان من بعدِه، ومنها ما تناولَ شأنَ البشاراتِ للآلِ والصحابةِ وبعضِ تَنَفُّسَاتِ المراحلِ وامتدادِ الإسلام في الأرض، ومنها ذِكرُ بعضِ الأفرادِ بخيرٍ فيما يأتي من الزمان

ذلك؟ قال: «**ذلك أيام الهرج**» قلت: ومتى أيام الهرج؟ قال: «**حين لا يأمن الرجل جليسه**» «مسند أحمد (٤٢٨٦)، و«المستدرك على الصحيحين (٥٣٩٧).

(١) فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن بين يدي الساعة لهرجاً**» قالوا: وما الهرج؟ قال: «**القتل والكذب**». وفي «الفتن» لنعيم بن حماد (١٥٩) عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**إذا رأيتم الدم يسفك بغير حقه، والمال يعطى على الكذب، وظهر الشك والتلاعن وكانت الردة فمن استطاع أن يموت فليمت**».

(٢) «صحيح البخاري» (٣٦٠٦)، «صحيح مسلم» (١٨٤٧).

إما بالاسمِ أو الدلالةِ والإشارةِ، كبشارته بباقر العلم في آل البيت، وبعالمِ مكةَ ـ وفي رواية : عالمِ قريشٍ ـ يملأُ طباق الأرض علماً ، وبالإمام المهديِّ وعيسى عليهما السلام ، وغيره من نماذج البشارات بالأفراد والشخوص .

وتدخلُ هذه البشاراتُ أيضاً في بابِ الحصانةِ والسندِ والعدالةِ، وخاصة عند احتدام الأمور وصدور القذف والتهمة من بعض المسلمين لبعض آل البيت والصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان ، فتكون أحاديثُ البشارات والحصانة وسلامة التلقي خيرَ حمايةٍ لأولئك من ألسِنة أهل الفتن والفتن المضلة ، ومنها أحاديث السلامة من الفتن وتوجيهات الرسول في شأن ما يفعله المسلم إذا أُسيلت الدماء بين المسلمين ، واحتدم أمر الناس واختلفوا على كرسي الحكم والعلم.

ومن نماذج هذا القسم ما يخص علم الحصانة والسند والأئمة العدول ، وهو علم خاص بفقه التحولات ، يؤخذ من النصوص ومعاني آيات الارتباط السندية ، ومعاني حصانة (الأئمة العدول) ، كقوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام مدافعاً عن منهج تلقيه الأبوي السندي: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف:٣٨]. وكتوثيق الحق سبحانه لمن يعنيهم معنى الآية ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام:٨٩]، وكقوله في الإشارة إلى الموطن والأصل الثابت: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف:٥٨].

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم في حصانة السند المتصل: «**يَحْمِلُ هٰذَا العِلْمَ مِنْ**

كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الغَالِينَ ، وَانْتِحَالَ المُبْطِلِينَ ، وَتَأْوِيلَ الجَاهِلِينَ»[1].

والحصانةُ أنواعٌ :

* حصانةُ أفرادٍ، كما هو في أحاديث المناقب للأفراد من الآل والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .

* حصانةُ فئاتٍ كما هو في حصانة أهل بدر والشجرة وآل البيت[2] .

* حصانةُ مراحلَ، كما هو في أحاديث حصانة مرحلة الخلافة ، ولهذه الحصانة مراتب:

١- مرحلةُ الرِّسالَةِ، وحصانتُها الوحيُ ، والعِصمَةُ ، والمُعجِزاتُ، والأخلاقُ.

٢- مرحلةُ الخلافةِ الرَّاشِدَةِ، وحصانتُها الاجتهادُ، ونُصوصُ النُّبُوَّةِ، ومواقِفُ الخُلَفاءِ.

٣- مرحلةُ المُلكِ العَضوض وحتّى مرحلةِ الغُثاءِ، وحصانتُها حِفظُ بَيضةِ الإسلامِ، وإقامةُ فرضِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ.

---

(١) سبق تخريجه في بداية الكتاب، والعدول هم العلماء الوارثون الحاملون صفة الحصانة بسلامة التلقي والترقي، وصفة العدالة بالسند المتصل .

(٢) كقوله تعالى في آل البيت : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[الأحزاب:٣٣] ، وفي أهل بيعة الرضوان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح:١٠] ، وفي أهل بدر قوله ﷺ: «**لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» «صحيح البخاري» (٤٨٩٠) ، «صحيح مسلم» (٢٤٩٤) ، وفي الصحابة «**لا تسبوا أصحابي ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**» «صحيح البخاري» (٣٦٧٣) .

ولا حصانَةَ لمرحلَةِ الغُثاءِ ورُموزِها بعد نقضِ الحُكمِ والعِلمِ، وإنَّما يبقى الحِفظُ العامُّ للأُمَّةِ على صِفَةِ العُمومِ من قولِهِ ﷺ: «**مثل أمتي كالمطر يجعل الله في أوله خيراً وفي آخره خيراً**»[1]، وعلى صِفَةِ الخُويصَةِ والخاصَّةِ في قولِهِ ﷺ: «**فعليكَ بِخُويصَةِ نفسِكَ**»[2].

ولكل حصانةٍ شروطٌ.

وَأَمَّا شرف العدالة والسند فَالمَقْصُودُ بِهِ تَسَلْسُلُ الإِسْنَادِ وَتَسَلْسُلُ مَنْهَجِ التَّزْكِيَةِ الشَّرْعِيَّةِ الأَبَوِيَّةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَىٰ أُنْمُوذَجَيْنِ:

(أ) سَلَامَةُ أَوْعِيَةِ العِلْمِ مِنَ القَوَادِحِ، أَيْ: عَدَمُ اشْتِرَاكِ المُتَلَقِّي في قَادِحٍ شَرْعِيٍّ يُخِلُّ بِالعَدَالَةِ، وَهُوَ:

١. الخَوْضُ بِاللِّسَانِ عَلَناً بِالذَّمِّ،

٢. أَوِ المُشَارَكَةُ في إِسَاحَةِ الدَّمِ،

وَهُما مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِمَا في فِقْهِ التَّحَوُّلَاتِ بِمُضِلَّاتِ الفِتَنِ.

(ب) السَّنَدُ المُتَّصِلُ في التَّلَقِّي وَالتَّرَقِّي عَنِ العُدُولِ

وَيَخْرُجُ مِنْ هٰذَا المَعْنَىٰ الشَّرْعِيِّ مَسْأَلَةُ الشَّهَادَاتِ الرَّسْمِيَّةِ ذَاتِ العَلَاقَةِ المُبَاشِرَةِ بِالمَنْهَجِيَّةِ الحَدِيثَةِ القَائِمَةِ عَلَىٰ اعْتِبَارَاتِ (عُلُومِ الخَدَمَاتِ)، فِي شُرُوطِهَا الثَّلَاثَةِ (الشَّهَادَةِ – الوَظِيفَةِ – المُرَتَّبِ) إِذْ إِنَّ قِيمَتَهَا الِاعْتِبَارِيَّةَ مَرْبُوطَةٌ بِسِيَادَةِ الأَنْظِمَةِ، وَتَوْثِيقِ المُؤَسَّسَاتِ الأَكَادِيمِيَّةِ الَّتِي لَا عَلَاقَةَ لَهَا بِالإِسْنَادِ وَالعَدَالَةِ الشَّرْعِيَّةِ لَدَىٰ

---

(١) لفظه في «كنز العمال» (٣٤٥٦٩) وعزاه للطبراني، وفي «المعجم الأوسط» (٣٦٦٠): (**أمتي كالمطر لا يُدرَى أوله خير أم آخره**).

(٢) وقد سبق تخريجه في مطلع الكتاب.

العُلَمَاءِ ، إِلَّا إِذَا جَمَعَ الْمُتَلَقِّي بَيْنَ الأَمْرَيْنِ وَتَلَقَّىٰ الدِّرَاسَةَ الأَكَادِيمِيَّةَ مِنْ جِهَةٍ مَعَ نَيْلِ الإِجَازَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَالتَّلَقِّي الْمُسْنَدِ عَنِ العُلَمَاءِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ.

فِقْهُ مُسْتَجَدَّاتِ العُلُومِ النَّظَرِيَّةِ وَالتَّطْبِيقِيَّةِ وَالثَّقَافَاتِ ، وَمَا يَخُصُّ الإِعْجَازَ العِلْمِيَّ وَالمَعَارِفَ الْمُتَنَوِّعَةَ السَّلْبِيَّةَ وَالإِيجَابِيَّةَ (النَّظَرِيَّاتِ وَآلِيَّاتِ التَّطْبِيقِ)

ويُطلَقُ هذا التعريفُ على مجموعِ العلومِ المعروفةِ بعلومِ الآلةِ، كاللغاتِ والعلومِ الثقافيةِ و الاجتماعيةِ والإنسانيةِ، وكذلك العلومُ النظريةُ والتطبيقيةُ الماضيةُ والحاضرةُ والمستقبليةُ ، وما تَفَرَّعَ عنها من ثمراتٍ واختراعاتٍ واكتشافاتٍ وخدماتٍ متنوعةٍ، وكذلك علوم التنجيم والسحر والحرف والكف والطلاسم وغيرها .

والمقصودُ **بمراتبِ العلم** : (موقعُ العلمِ من أمرِ الدنيا ، وموقعُه من أمرِ الآخرةِ ، وما يترتبُ على العالِمِينَ به من طلبِ ثوابٍ وخوفِ عقابٍ، وتسخيرِ الجهودِ العلميةِ في إيجابياتِ البناءِ والتطورِ والنفعِ الخاصِّ والعامِّ، وفي الدفاعِ عن الحقِّ الإلهيِّ في العبادِ والذودِ عنه بالسلاحِ والمالِ والوسائلِ التكنولوجيةِ المتنوعةِ ، وتوظيفِها توظيفاً إنسانياً واعياً لخدمةِ الحياةِ الإنسانيةِ اقتصاداً وعلماً وتعليماً وطباً وصناعة وأمناً وإيماناً ومواقفَ إيجابيةً).

وهذه هي نقطةُ التباينِ بين علماءِ الدياناتِ الشرعيةِ وعلماءِ التوليفاتِ الإنسانيةِ الوضعيةِ ، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾[البقرة:١٤٨] .

والمستثمرون لأطرافِ التبايُنِ جِهَتَانِ:

* الأولى دعوة الصراط المستقيم ، وهي الدعوةُ الإلهيةُ العليا على ألسنةِ الأنبياءِ والرسلِ ومن ارتبطَ بهم من العلماءِ الصالحينَ والأتباعِ المؤمنين ، من أهل الحصانة والعدالة ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، ومصيرهم إلى السلامة في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

* الثانية جهةُ الشيطانِ الرجيم ، وما ابْتَلَى اللهُ به العبادَ من آثارِ دعوتِه السلبيةِ على ألسنةِ الدجاجلةِ والكفارِ والوكلاءِ العباقرةِ من المنافقين والمرجفين والذين في قلوبهم مرض ، ومن تبعهم من المستغفلين من أمة الإسلام بعلم وإدراك وتَسْيِيسٍ متعمَّدٍ إلى يوم الدين ، ومصير من لم يتب منهم ومن لم يتغشاه المولى بواسع رحمته إلى جهنم وبئس المصير.

وتحتَ هذا البابِ تأصيلٌ خطيرٌ لا يُدرَكُ إلا بالتعمقِ في آياتِ اللهِ ، وسنةِ رسولِ اللهِ ﷺ ، وطولِ النَّظَرِ في المدلولاتِ والمواقفِ الشرعيةِ ، والمدلولاتِ والمواقفِ الوضعيةِ ، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١].

فِقْهُ الأَشْرَاطِ الكَوْنِيَّةِ وَالمَلَاحِمِ

يُطْلَقُ هٰذَا التَّعْرِيفُ عَلَىٰ مَا يَخُصُّ الأَشْرَاطَ وَالتَّحَوُّلَاتِ الجَارِيَةَ فِي حَيَاةِ الأُمَمِ كَمَا جَاءَ فِي نُصُوصِ القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ عَلَىٰ الكَيْفِيَّةِ التَّالِيَةِ:

(أ) الأَشْرَاطُ ، وَالأَشْرَاطُ جَمْعُ شُرَطٍ، وَالشُّرَطُ لُغَةً العَلَامَةُ، وَالعَلَامَةُ فِي فِقْهِ التَّحَوُّلَاتِ هِيَ الظَّوَاهِرُ الكَوْنِيَّةُ الجَارِيَةُ بِأَمْرِ اللهِ وَفْقَ مَا أَخْبَرَ عَنْهُ المُصْطَفَىٰ ﷺ

مِنَ الأَحَادِيثِ وَتَنْقَسِمُ إِلَىٰ أَقْسَامٍ:

* **الأَشْرَاطُ الِاسْتِبَاقِيَّةُ**، وَهِيَ العَلَامَاتُ الكَوْنِيَّةُ المُخَالِفَةُ لِمُجْرَيَاتِ القَوَانِينِ الطَّبِيعِيَّةِ المُعتَادَةِ كَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدُّخَانِ، وَالرِّيحِ القَابِضَةِ، وَالخُسُوفَاتِ الثَّلَاثَةِ، وَالنَّارِ الحَاشِرَةِ، وَالمَسْخِ وَالقَذْفِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الكَوَارِثِ الطَّبِيعِيَّةِ.

* **الأَشْرَاطُ الِاسْتِقْرَائِيَّةُ**، وَهِيَ مَجْمُوعُ مَا أَجْرَاهُ اللهُ مِنَ الآيَاتِ فِي الأُمَمِ السَّابِقَةِ ذَاتِ العَلَاقَةِ بِالعَلَامَاتِ المَوْعُودَةِ، كَمَا عَبَّرَ القُرْآنُ عَنْهَا فِي قَوْمِ عَادٍ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۖ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[الأحقاف:٤٢].

(ب) المَلَاحِمُ، جَمْعُ مَلْحَمَةٍ، وَهِيَ الحُرُوبُ الطَّاحِنَةُ الَّتِي تَلْتَحِمُ فِيهَا الجُيُوشُ وَيَكْثُرُ قَتْلَاهَا وَضَحَايَاهَا، وَتُطْلَقُ غَالِباً عَلَى الحُرُوبِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَالكُفَّارِ، وَمِنْهَا حُرُوبُ الفُتُوحَاتِ الَّتِي خَاضَهَا المُسْلِمُونَ مَعَ الفُرْسِ وَالرُّومِ فِي عَهْدِ الخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ وفِي مَرْحَلَةِ المُلْكِ العَضُوضِ الأُولَىٰ وَالثَّانِيَةِ، وَمَا جَرَىٰ مِنَ الحُرُوبِ الكُبْرَىٰ بَيْنَ الدَّوْلَةِ العُثْمَانِيَّةِ وَالدُّوَلِ الأُورُوبِّيَّةِ، وَمَا سَيَأْتِي مِنْ لَاحِقِ الحُرُوبِ المَوْعُودِ بِهَا فِي عَهْدِ السُّفْيَانِيِّ وَالمَهْدِيِّ وَالدَّجَّالِ وَعِيسَىٰ عليه السلام.

فِقْهُ الرَّبْطِ الشَّرْعِيِّ بَيْنَ الدِّيَانَةِ وَالتَّارِيخِ

وهو العلم الذي يخص قراءة التاريخ الأبوي النبوي الشرعي منذ بداية الحياة إلى نهايتها من خلال القرآن والسنة الشريفة، وما يقابله من قراءة التاريخ الأنوي الطبعي الوضعي وتاريخ الفصل بين الديانة والتاريخ.

وهذا العلم يعيد قراءة القرآن قراءةً تاريخيةً شرعيةً مفصلةً فيما يناسب **الربط الشرعي بين الديانة والتاريخ**، من مثل:

* دراسة التكوين الآدمي ، وما يخصه من الآيات والأحاديث وموقف إبليس من السجود لآدم وما ترتب على ذلك.

* دراسة مرحلة سكن الجنة وبدء مرحلة الأوامر والنواهي ، وفقه عداوة الشيطان وأثره على الإنسان .

* دراسة مرحلة الإهباط إلى الأرض ووظائف الفرقاء في الحياة ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣- ١٢٤] .

* دراسة بدء مرحلة مسؤوليات الخلافة على صفة المدرسة الأبوية النبوية أبوية آدم ومن آمن به، وأنوية الشيطان ومن ارتبط به ، وبدء نشاطه الكفري في «قابيل» ليؤسس مدرسة الأنوية الإنسانية في العالم وبدء مرحلة التاريخ المادي المجرد، المدرسة القائمة على (الكفر – القتل – الكذب – العقوق – الغرائز – الرفض والإباء) وما يقابلها من معادل السلوك الأبوي النبوي الشرعي لدى (هابيل) كما ورد في آيات سورة المائدة : ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ [المائدة:٢٧] .

وما ترتب على افتراق المدرستين: مدرسة الأبوة الشرعية ومدرسة الأنوية الوضعية في سير العالم الإنساني، وتميز المدرسة الأبوية النبوية برسالة آدم عليه السلام وموقف هابيل وما تفرع بقراءته من الكتب المنزلة والرسل والأنبياء عبر الأزمنة، والمراحل من آدم عليه السلام إلى نوح عليه السلام، ومن نوح عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام ، ومن إبراهيم عليه السلام إلى موسى عليه السلام، ومن موسى عليه السلام إلى عيسى

عليه السلام ، ومن عيسى عليه السلام إلى عهد محمد صلى الله عليه وآله وهو العهد الذي يمتد إلى قيام الساعة وفق الدراسة العلمية الشرعية لفقه التحولات[1] .

وَتَنْقَسِمُ دِرَاسَةُ هذَا العِلْم إلى أَرْبَعَة أَقْسَام :

١ - عِلْمُ السَّوَابِق وَالأَزَل ، وَيَخْتَصُّ بِمَا قَبْلَ وُجُود الإِنْسَان.

٢ - عِلْمُ الأَجَل وَالأَمَل ، وَيَخْتَصُّ بِعُلُوم الحَيَاة الدُّنْيَا مِنَ التَّكْلِيفَات وَالابْتِلاءَات (المُتَغيِّرَات).

٣ - عِلْمُ الأَمَد ، وَيَخْتَصُّ بِعَالَم الأَجْدَاث وَالأَمْوَات وَالعَرْض عَلَى رَبِّ البَرِيَّات.

٤ - وَيَخْتَصُّ بِعَالَم الخُلُود في الجَنَّة وَالنَّار وَنَمَاذِج مَا فِيهَا مِنَ النَّعِيم أَو العَذَاب أَوْ غَيْر ذَلكَ.

وَيُعْنَىٰ هٰذَا العِلْمُ بِتَصْحِيح مَفْهُوم القِرَاءَة لِلتَّارِيخ كُلِّه ، بَدْءاً بِدِرَاسَة الأَزَلِيَّات وَالسَّوَابِق ، ثُمَّ بِمَفْهُوم الإِنْسَان الأَوَّل وَتَطَوُّر حَيَاته ، وَنِهَايَةً بِانْتِهَاء الكَوْن وَتَفْسِير ذَلكَ ، وَفْقَ دِرَاسَة العِلْم بِعَلامَات السَّاعَة وَأَقْسَامِهَا الثَّلاثَة ، وَهِيَ :

١. مَرْحَلَةُ الرِّسَالَة (القِرَاءَةُ الأَصْلِيَّةُ).

٢. مَرْحَلَةُ القِرَاءَة الاسْتِبَاقِيَّة.

٣. مَرْحَلَةُ القِرَاءَة الاسْتِقْرَائِيَّة.

ثُمَّ دِرَاسَةُ عِلْم السَّاعَة ذَاتِهَا ، وَهُوَ مَا يُعْرَفُ بِعَالَم الأَمَد وَالأَبَد ، وَاعْتِمَاد الثَّوَابِت القُرْآنِيَّة وَالحَدِيثِيَّة الصَّحِيحَة في تَفْسِير بَدْء الخَلْق وَتَطَوُّر الحَيَاة البَشَرِيَّة ، وَمَصِير الإِنْسَان ، وَغَايَاته في الدُّنْيَا وَالآخِرَة . مَعَ الاسْتِفَادَة مِنَ النَّظَرِيَّات المَادِّيَّة في مَجَالَاتِهَا المُنَاسِبَة دُونَ اعْتِمَادِهَا في التَّفْسِير التَّارِيخِيِّ لِلْكَوْن وَأَصْل الوُجُود وَنِهَايَتِه.

---

(١) وقد شرعنا في كل ذلك في كتابنا «التكوين الآدمي» يسر الله إتمامه.

رَبْطُ الدِّيَانَةِ بالتَّاريخِ وَعَلاقَةُ ذٰلِكَ بالرُّكْنِ الرَّابِعِ

صـار مِن مُهمَّـاتِ فقهِ التحولاتِ ربطُ الديانةِ بالتاريخِ ربطًا وثيقًا غيرَ منقسـمٍ ولا منفصـمٍ ، فالقارئـون للتاريـخِ على صِفَةِ الأحـداثِ والتحولاتِ السياسـيةِ يقرؤُون التاريخَ ويفسِّرونَه بلسانِ صُنَّاعِه ورَاسِمِي سياستِه، بل يَخْتَلِفُون ويتنابزونَ بالألقابِ وَفقًا لشرحِ الحوادثِ ومجرياتِ الوقائعِ ونماذجِ الولاءِ.

والحقيقـةُ المغيَّبـةُ عن الجميعِ أنَّ الديانةَ الشـرعيةَ ممثلةً بالقرآنِ والسُّـنَّةِ قد فَرَغَـتْ منذُ عهـدِ الصَّـدْرِ الأَوَّلِ من تصنيفِ التاريخِ الإنسـانيِّ قديمـاً وحديثاً وحاضراً ومسـتقبلاً، وَبَيَّنَتْ كلَّ ما يتعلقُ في مسـيرتِه بين الخيرِ والشـرِّ والحقِّ والباطلِ ؛ حتى صارَ توثيقُ القرآنِ والحديثِ النبويِّ أعظمَ شـاهدٍ علىٰ التاريخِ ومُفَسِّرٍ لحقائقِه الإيجابيةِ ومُدِينٍ لأباطِيلِه السلبيةِ.. إلا أنَّ هٰذا التوثيقَ لا يرتبطُ بمـا تَدْرُسُـهُ الأُمَّـةُ المعاصرةُ من ثمـراتِ علمِ الأصولِ واسـتدلالاتِ السُّـننِ الثَّلاثـةِ: القوليةِ والفعليـةِ والتقريريةِ، مع أنَّ فيها من العلـمِ ما يخصُّ ذٰلكَ؛ إلّا أنَّ حصرَ الأمرِ الشرعيِّ على الأركانِ الثلاثةِ المعروفةِ بالثوابتِ عَزْلٌ بينَ تقريرِ الدِّيانةِ وبينَ تفسيرِ التاريخِ.

والصحيحُ الّذي لا غبارَ عليه أنّ «المتغيراتِ» ـ وهو علمُ التاريخِ والتحولاتِ ـ جزءٌ لا يتجزأُ من شؤونِ الديانةِ ، وبالدمجِ بين ثمراتِهما والقراءةِ الواعيةِ لهما تَبْـرُزُ الحقائقُ المغيَّبةُ، ونعرفُ الأضاليلَ الضاربةَ على عقولِ الأمةِ كلِّها سـواءً في مستوى الحكمِ أو مستوى العلمِ أو مستوى الشعوبِ أوشؤونِ الحياةِ.

والقـارئُ للتاريـخِ مرتبطًا بالديانـةِ تَلْزَمُهُ **العـودةُ الواعيةُ للقـرآنِ الكريمِ كي**

يستخلصَ منه أُسُسَ هٰذا العلمِ ، ثم العودةُ إلى السنةِ الشريفةِ لاستكمالِ نسيجِ القراءةِ الواعيةِ فيما يخصُّ التاريخَ وتحولاتِه . ولا يمكنُ بأيِّ حالٍ من الأحوالِ أن يتعرّف المرءُ على هٰذا الأمرِ إلا بدراسةِ فقهِ التحولاتِ دراسةً واعيةً ؛ لأنّهُ العلمُ المختصُّ بهٰذا النوعِ من الحياةِ.

وقولُنا: (العودةُ إلى القرآنِ الكريمِ والسنةِ النبويةِ لاستخلاصِ مقاييسِ هٰذا العِلْمِ) معناهُ النظرُ في وظائفِ النصِّ القرآنيِّ ومحتواه[1]، والنظر في النص الحديثي الخاص بهذا الجانب وتفصيلاته.

فالقرآنُ لا يروي أحداثَ التاريخِ كوقائعَ سياسيةٍ أو اجتماعيةٍ مستقلةٍ، بل يرويها ويروي معها موقفَ أصحابِها من الديانةِ ذاتِها، ويروي موقفَ الديانةِ الشرعيةِ من المرحلةِ وأربابِها.

بل إنَّنا كلما استطردنا في قراءةِ القرآنِ من أولِه إلى أوسطِه إلى آخرِه سنجدُ العَجَبَ العُجَابَ في القراءةِ التاريخيةِ المرتبطةِ بالديانةِ سلباً وإيجاباً.

بل يزدادُ الأمرُ عجباً عند النظرِ في النتائجِ السلبيةِ وما تؤدِّي إليهِ من هَلَاكٍ، والنتائجِ الإيجابيةِ وما تؤدي إليه من السلامةِ والاستقرارِ.

وقد ضَرَبْنَا في كتابِ «الأسسِ والمنطلقاتِ» علىٰ هٰذا الشأنِ مَثَلاً حَيّاً في **سورةِ الكهفِ**، وما احتوتْهُ مِن وقائعِ الارتباطِ بينَ الديانةِ والتاريخِ، بل وَلَفَتْنَا النَّظَرَ في ثَوابِها المترتِّبِ لِقَارِئِها يوم الجمعة وليلتها وعلاقةِ الثوابِ بأهميةِ

---

(١) مع العلم أنَّ غالب المفسرين وضعوا أغلب مسائل التفسير على ضوء مخرجات الأركان الثلاثة ، ولم يقفوا على سر الارتباط بين القرآن وعلامات الساعة .

مواضيعِ السورةِ ، ومن هٰذه الأهميةِ كونُها ترتبطُ بالساعة وعلاماتِها، ومن ذٰلك قراءةُ الآياتِ العشرِ من أولِها ، وقيل: من آخرِها ، لتكونَ عِصمةً للمسلمِ من أثرِ المسيخِ الدّجّالِ.

وما هذا التخصيصُ إلا إشارةٌ واضحةٌ لهٰذا العلمِ الّذِي نحنُ بصدِده ووجوبٌ لإعادةِ قراءةِ القرآنِ تحتَ قواعدِ هٰذا العلمِ الهامِّ «**علمِ التحولاتِ والمتغيراتِ**» من الركنِ الرابعِ من أركانِ الدِّينِ.

ومن القراءةِ النموذجيةِ في هذا الفقهِ قراءةُ **سورةِ المنافقون**، وهي السورةُ التي كَشَفَتِ القناعَ عن نماذجِ الإفكِ والكذبِ والزورِ ، وهُمْ يُهَنْدِسُون مدرسةَ القبضِ والنقضِ والشكِّ والإرجافِ في ذاتِ المدينةِ المنورةِ مع رسولِ اللهِ ﷺ ، ويتربصونَ بِهِ الدوائرَ ويُشاركونَ الأعداء في كلِّ مناسبةٍ وغزوةٍ وسَرِيَّةٍ ومؤامرةٍ.

وتكادُ هٰذِه السورةُ بما فيها اسمُها أن ترصدَ للأمةِ **مرحلةً تاريخيةً خطيرةً** ارتبطتْ بالديانةِ من حيثيتينِ:

* الأولى : مِن حيثُ كونُها مرحلةً تحاربُ الديانةَ وتؤذي رسولَ الله ﷺ.

* الثانية : كونُها تُؤَصِّلُ منهجيةَ النفاقِ التاريخيِّ داخلَ الخيمةِ الإسلاميةِ.

وبمتابعةِ هٰذه التفاصيلِ القرآنيةِ عن النفاقِ من خلالِ هٰذه السورةِ تتبينُ المبادئُ التاريخيةُ لمدرسةِ النفاقِ في أخطرِ صُوَرِها وأساليبِها.

كما يَبْرُزُ من دراسةِ **سورةِ براءةَ** نمطُ فقهِ التحولاتِ أكثرَ مِمّا يَبْرُزُ في سورةِ المنافقون ، فسورةُ براءة تَحْمِلُ صفةَ الشمولِ في فَضْحِ كافةِ مدارسِ الإفكِ

والشـركِ والجاهليةِ قديماً وحديثاً، ولهٰذا سُـمِّيتْ بـ «الفاضحةِ» ولم تَرِدِ البسملةُ فـي أوَّلِهـا، وأمـرَ النبـيُّ ﷺ عَلِيّـاً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ أن يَذْهَـبَ بها إلـى مكةَ لقراءتِهـا علـى الجميـعِ كبيانٍ عالميٍّ لا ينطقُ به إلا رسـول اللـه ﷺ أو رجلٌ من أهلِ بيتِه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ .

وكـم في القـرآنِ العظيمِ مـن سُـوَرٍ ذاتِ ارتباطٍ عميقٍ بقـراءةِ التاريـخِ مربوطاً بالديانـةِ، إمـا في صورتِه الإيجابيـةِ من وصفِ الأنبيـاءِ وأحوالِهم ووصفِ الأممِ المسـلمةِ والوقائعِ الإيمانيةِ ، وإمّا في صورتِه السـلبيةِ من وصـفِ الأممِ الكافرةِ وعذابِ اللهِ لهم في الدنيا قبلَ الآخرةِ ومن سَـرْدِ أحوالِ وأخبارِ ومصيرِ الفراعنةِ والنمرودِ وهامانِ وقارونِ ومن في هٰذا الحالِ والاتجاهِ من المفسدينَ في الأرضِ.

كما أنَّ في قراءةِ الحديثِ الشـريفِ فيما يخصُّ الركنَ الرابعَ من أركانِ الدينِ ـ وهـو فقـهُ التحـولاتِ ـ ما يفتحُ المجالِ واسـعاً فـي إعادةِ الربـطِ الواعي بينَ التاريـخِ والديانـةِ، ويُعيدُ قراءةَ النـصِّ النبويِّ قراءةً توضيحيـةً مرتبطةً بالهدفِ الشرعيِّ الّذي جاءتْ من أجلِه .

وقد أَشَرْنَا في كتابِنا «الأسس والمنطلقات» إلى العلامات الكبرىٰ والوسطىٰ والصغـرىٰ باعتبارهـا مادةَ الربـطِ بين مسـيرةِ التاريـخِ الإنسـانيِّ والديانةِ عبرَ التحولاتِ والتغيراتِ، ووَضَعْنَا لها تقسيماً تاريخياً محدداً.

* فالعلامـاتُ **الكبـرىٰ** مختصةٌ بمرحلـةِ آخرِ الزمـانِ ، وتبدأُ بظهـورِ الإمامِ المهديِّ.

* والعلاماتُ **الوسطىٰ** ما بينَ بعثةِ النبيِّ ﷺ إلىٰ عصرِ الإمامِ المهديِّ.

* والعلاماتُ **الصغرىٰ** من قبلِ ميلادِ النبيِّ ﷺ إلىٰ قيامِ الساعةِ.

ولـم تـأتِ هٰـذه التقسـيماتُ إلّا علـىٰ ضـوءِ قـراءةِ الحديـثِ مرتبطـاً بفقـهِ التحـولاتِ، والّذينَ يَأْبَوْنَ هٰذا التقسـيمَ باعتبارِ حَدَاثَتِه ومخالفتِه لِمَا سـبق من التأصيلِ لعلمِ العلاماتِ ؛ هُمُ الَّذِينَ لم يُدركوا سِرَّ علاماتِ الساعةِ ولا سِرَّ فقهِ التحوُّلِ والتَّبَدُّلِ.. والمرءُ عدوُّ ما يَجْهَلُ..

وللحديـثِ النبويِّ صولةٌ وجولةٌ في قراءةِ التاريخِ الإنسـانيِّ وتوثيقِ سـلامةِ التاريخِ الإسـلاميِّ سـواءً فـي مسـتوىٰ الحكمِ بنماذجـه أو في مسـتوىٰ العلمِ بأنواعه أو في غير ذٰلك.

سُنَّتَا المَوَاقِفِ وَالدَّلَالَةِ وَعَلَاقَتُهُمَا بِالرُّكْنِ الرَّابِعِ

لما كان الركن الرابع من أركان الدين مغيباً[1] عن الدراسة التحليلية في كتب علمـاء الأصول بقي الركنُ ومتفرعاته غائباً أيضاً عـن العلماء الفحول ، ولهذا

(١) ومعنى قولنا: (الفقه المغيب) أي: المتروك تفصيله وتبويبه منذ الزمن الأول، وسبب ذلك كونـه مرتبطـاً بالحوادث ، قـال ابن رجب الحنبلي في «جامع العلـوم والحكم» ص١١٩ : وكان كثـير من الصحابة والتابعين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يكرهون السـؤال عن الحوادث قبل وقوعها ولا يجيبـون عن ذلـك، قال عمرو بن المرة : خرج عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عـلى الناس فقال : أُحَرِّجُ عليكـم أن تسـألوا عما لم يكن فأين لنا فيما كان شـغلا؟ وعن ابـن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال : لا تسألوا عما لم يكن ، فإني سمعت عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَعَنَ السائلَ عما لم يكن ، وكان زيد بن ثابت إذا سئل عن شيء يقول: كان هذا؟ فإن قالوا: لا ؛ قال : دعوه حتى يكون، وقال مسروق : سـألت أبيَّ بن كعب عن شيء فقال : أكان بعد؟ فقلت : لا، فقال: أَرِحْنا حتى يكونَ ، فإذا كان اجتهدنا لك رَأْيَنَا ، وقال الشعبيُّ: سئل عمار عن مسألة فقال: هل كان هذا بعدُ؟ قالوا : لا ، قال : فدعونا حتى يكون ، فإذا كان تَجَشَّمْنَاه لكم.

قلتُ: ومثل هذا القول منحصر لدى أهل علم الأصول في الحوادث والتوسع في توليد المسائل الفقهية قبل وقوعها ، مما يعرف بالافتراضيات أو الفرضيات ، واشتغال البعض بتكلف الجواب عن ذلك وكثرة الخصومات في الجدال عليها .

أما ما نحن بصدده من فقه التحولات فإنما هو ربط الحوادث بالنصوص وليس بالرأي والجدال ، وفي قول السلف أنهم يكرهون السؤال عن الحوادث قبل وقوعها فإن لهم بذلك مندوحة السكوت عن علامات الساعة ؛ لأنها لم تقع آنذاك ولم يشهدوا شيئا منها.

أما وقد وقع أكثرها الآن وخاصة العلامات الوسطى والصغرى فالإيضاح عما وقع لازم وواجب كما أشرنا في العبارات السابقة ، والله أعلم.

غـاب في هذا الجانب دراسـةُ السـنن النبوية التي يتأصل بهـا الركن الرابع كما تأصل علمُ الأصول بالسـنن القولية والفعلية والتقريرية ، حيث برز من ثمراتِ دراسـةِ فقهِ التحولاتِ المخصـوصِ بتأصيلِ الركنِ الرابعِ مـن أركانِ الدينِ أنَّ هناك سُنَّتَيْنِ هامتيْنِ هما ركيزةُ الرباعيّةِ الرُّكنيّةِ عند الاستدلالِ:

* الأولى : **سُنَّةُ الْمَوَاقِفِ : (سُنَّةُ الحَالِ)**[1]

حَقِيقَةُ المَوْقِفِ الذَّاتِيِّ لِلرَّسُولِ ﷺ أَوْ أَحَدِ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ فِيمَا يَلْزَمُ فِيهِ البَتُّ الحَاسِـمُ المُـؤَدِّي بِالـضَّرُورَةِ إِلَىٰ سَـلَامَةِ الأَمْرِ وَحُسْـنِ النَّتَائِجِ فِي التَّـصَرُّفِ بِمَا لَمْ يُلْزِمْهُمُ النَّصُّ فِيهِ التَّقَيُّدَ بِأَمْرٍ مُعَيَّنٍ.

* الثانية : **سُنَّةُ الدَّلَالَةِ** :

وهي ضَابِطٌ شَرْعِيٌّ فِي فِقْهِ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ يُحَدِّدُ فِعْلَ الشَّيْءِ أَوْ تَرْكَهُ ، بِاسْـتِقْرَاءِ نَصٍّ قُرْآنِيٍّ أَوْ حَدِيثٍ نَبَوِيٍّ مُقَرِّراً ذٰلِكَ أَوْ مُشِيراً إِلَيْهِ ضِمْناً.

والعملُ بهاتينِ السُّـنتينِ منحصـرٌ في فقه التحولات ، ودراسـةُ تفاصيلِ هذا العلمِ غيرُ مخدومةٍ كما أَشَـرْنا إلى ذلك، مع أنها سـنةٌ من سننِ المصطفى ﷺ القولية والفعلية والتقريرية .

---

(١) المقصـود بسـنة الحـال: حقيقـة الموقف الذاتي في باطن السـلوك إيجابا وسـلبا، فقـد يُعَيِّنَّ الرسولُ ﷺ أحدَهم في ظاهر الحال؛ لكن النَّصَّ يُبرز حالاً آخر للحبيب ﷺ كما في قوله كـما رواه البخاري في (باب المداراة مع الناس) : «**إِنَّ شَـرَّ النَّـاسِ مَنْزِلَةً عند الله مَن تَرَكَه النـاسُ اتِّقاءَ فُحْشِـهِ**» ، قال أبو الـدرداء: إنا لَنَبُشُّ في وجوه أقـوامٍ وقلوبنا تلعنهم، وهذا نموذج من نماذج سنن المواقف .

ولأهمية دراسة (سنة المواقف) نشير على أن **كلمة (السنة) تحمل عدة معاني**:

* معنى خاصًّا مقيداً بمفهوم ما ثبت عن النبي ﷺ دون غيره من قول أو فعل أو تقرير، [وهو المعتمد في الاصطلاح الشرعي].

* معنى عاماً بمفهوم مواقف النبي ﷺ ومواقف خلفائه الراشدين المهديين ، [وهو المعتمد في فقه التحولات].

* معنى لغوياً مطلقاً بمعنى الطريقة أو الأسلوب سواء كان في الخير أو الشر، [وهو المعتمد في معاجم اللغة] .

وقد فرغ العلماء من تأصيل المفهوم الأول من خلال دراستهم لعلم الأصول وقواعده.

ونتناول هنا ما يخص المفهوم الثاني في (فقه التحولات) ، **فالسُّنَّة في فقه التحولات** تنقسم إلى قسمين :

* سنة مواقف .

* وسنة دلالة.

ومنطلق تأصيل سنة المواقف قوله ﷺ : «**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**»[1].

فتعين من لفظ الحديث معرفة ما يلي :

* معرفة المقصود من لفظ «**سُنَّتِي**» و «**سُنَّةِ الْخُلَفَاءِ**».

---

(١) «سنن ابن ماجه» (٤٢) ، «سنن الترمذي» (٢٦٧٦) .

* معرفة المقصود من لفظ : «**الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ**» وتأصيل هذا المفهوم النبوي .

* معرفة المقصود من لفظ : «**عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**».

* معرفة المقصود من لفظ «**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا**».

وعوداً على بدءٍ فإن مفهوم السنة لا يقف عند معناه اللغوي ولا معناه الاصطلاحي لدى علماء الأصول ، بل يتعداه إلى معان أخرى تتلقى مشروعيتها من أقوال صاحب السنة ﷺ ، فقد اعتبر النبي ﷺ الإحداثَ الحسنَ سنةً من السنن الحسنة، وهذا لا يعني أنها تدخل في مفهوم السنن النبوية التقريرية إلا ما قد أقرها وقررها في حياته ، وأما بعد ذلك فيدخل في مفهوم (سنة المواقف) ، وهي ما يعنيه قوله ﷺ: «**وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ**» ، كفعل الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مشاركته الواعية في بناء مرحلة الخلافة الراشدة وقبولها ، وتنازل الإمام الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد أخذه البيعة من الناس.

وهذه السُّنَّة الحسنة تتقيد بمفهوم سنة المواقف ، كما تتقيد بها أيضاً في صورتها السيئة فتكون سنة المواقف الإيجابية للخلفاء الراشدين تبعاً لمفهوم السنة الحسنة ، وسنة المواقف السيئة للحلفاء الشياطين على صفة النقض والقبض ، تبعاً لمفهوم السنة السيئة المعارضة لسنة المواقف الحسنة التي قال فيها ﷺ: «**مَنْ سَنَّ في الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بها بَعْدَهُ ؛ كُتِبَ له مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ**» [1] ، وفي حديث ابن ماجه عن أبي

(١) «صحيح مسلم» (١٠١٧) ، وفي رواية له : «**لا يسنُّ عبدٌ سنةً صالحةً يَعمل بها بعدَه..**».

هريرة بإسناد صحيح: «**مَنِ اسْتَنَّ خَيْراً فَاسْتُنَّ بِهِ كَانَ لَهُ أَجْرُهُ كَامِلاً وَمِنْ أُجُورِ مَنِ اسْتَنَّ بِهِ ، ولا يُنْقِصُ مِن أُجُورِهِمْ شَيْئاً ،ومَنِ اسْتَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَاسْتُنَّ بِهِ فَعَلَيْهِ وِزْرُهُ كَامِلاً وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِي اسْتَنَّ بِهِ ، وَلَا يُنْقِصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً**»[1].

وبهذا تنقسم السُّنَّة إلى معنيين :

* ففي الأصول هي ما أمر به النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ، وهو ما يعرف بنصوص الأحاديث ، والحديث النبوي يعرَّف بالمصدر الثاني للتشريع بعد كتاب الله.

* وفي فقه التحولات هو مواقف النبي ﷺ ، ومواقف خلفائه الراشدين المهديين ، المعنِيِّينَ بقوله ﷺ: «**اللهم ارحمْ خُلَفَائِي**» ، قال: قلتُ: يا رسولَ الله.. ومن خلفاؤُك؟ قال: «**الذينَ يَأْتُونَ مِنْ بَعْدِي يَرْوُونَ أَحَادِيثِي وَسُنَّتِي وَيُعَلِّمُونَها النَّاسَ**»[2].

فالنص هنا يقدم الأحاديث في قوله: «**أحاديثي**» ، وهي ما عرف اصطلاحاً بالسنة القولية والفعلية والتقريرية ، والثاني قوله: «**وسنتي**» وهي ما يطلق عليه في فقه التحولات بسنة المواقف .

---

(١) «سنن ابن ماجه» (٢٠٤) ، «المستدرك على الصحيحين» (٣٩٠٦) قال الحاكم : هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٢) «المعجم الأوسط» (٥٨٤٦) وأوله : (خلفاؤنا) قلنا : يا رسول الله وما خلفاؤكم ... الحديث) . وللخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» رواية «**اللذين يحيون سنتي من بعدي ويعلمونها عباد الله**» ، وانظر ما كتبه التويجري في «إتحاف الجماعة» (١: ٦٥).

ويؤيد هذا المنحى أيضاً قوله ﷺ: «**يكون بعدي أئمة يهتدون بهديي ولا يستنون بسنتي**»[1]، والهدي هنا كل ما ثبت عن النبي ﷺ من السنة القولية والفعلية والتقريرية وما تفرع عنها من العلوم الشرعية المتداولة في المذاهب الإسلامية المختلفة؛ ولكنهم مع هذا الحرص على الهدي النبوي لا يستنون بسنته، أي: لا يلتزمون بمواقفه الأخلاقية عند تطبيق هديه من قوله وفعله وتقريره.

والسنة هنا تشير إلى سوء مواقفهم العملية وسلامة استدلالاتهم العلمية.

وفي حديث آخر يثبت رسول الله ﷺ مجانبتهم للحق في كِلا الأمرين: هدي النبي العلمي الشرعي، ومخالفة سنن المواقف أيضاً وهذا ثبتٌ في قوله ﷺ: «**أُمَرَاءُ يَكُونُونَ بَعْدِي لا يَهْتَدُونَ بِهَدْيِي ولا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَأُولئِكَ لَيْسُوا مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُمْ، ولا يَرِدُونَ عَلَيَّ حَوْضِي**»[2]، وفي الحديث إشارة إلى نموذج من أمراء الحكم يعطلون العمل بالسنة القولية والفعلية والتقريرية، وهي ما عرف في الحديث بالهدى، ولا يستنون أيضاً بسنة المواقف لغلبة الحال السيء عليهم.

وتزدادُ أهميةُ العملِ بالسُّنَّتينِ مع بروزِ الحاجةِ إليهما، في عصرٍ عُطِّلتْ فيه السننُ القولية والفعلية والتقريرية لدى البعضِ، وحُرِّفتْ مدلولاتُها لدى البعض الآخر، حتى غدا المسلمون في عالمنا العربي والإسلامي أشتاتاً فيما بينَهم وأقزاماً أمامَ أعدائِهم التاريخيِّين، يتناول أحدهم الكتاب والسنة بالقول

(١) ذكرها العيني في «عمدة القاري» (٢٤: ١٩٤).

(٢) «صحيح ابن حبان» (٤٥١٤)، «المستدرك على الصحيحين» (٢٦٥).

والخطابة والاحتجاج، وحقيقة الحال غير ذلك مما يلبس على الأغرار والعوام، ويستثمر الإسلام لنقض الإسلام والسلام.

ولن تَقُومَ للجميع قائمةٌ إلا بالعَوْدِ إلى إحياءِ ما أماتَ الناسُ من سننِ المصطفى ﷺ، حيث أشار ﷺ إلى ذلك بقوله: «**إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي**»[1].

والدلالة كما أشرنا هي إحدى سنن الاستدلال في فقه التحولات كما هو في سنة المواقف.

و**السُّنَّةُ** على هذا المعنى تَخُصُّ (المواقفَ والأساليبَ)، وهي :

(١) مواقفُ وسننٌ نبويةٌ رحمانيةٌ من سننِ النبيِّ ﷺ وأصحابِه وآلِ بيتِه ومن تَبِعَهُمْ بإحسانٍ،

(٢) ومواقفُ وسننٌ شيطانيةٌ من سُنَنِ الدجاجلةِ والمفسدينَ وأهلِ الإفكِ والمنافقين، يقول فيها وآلِ بيتِه : «**سَيَكُونُ بَعْدَ أصحابي فتنةٌ يَغْفِرُهَا اللهُ لهم بمحبَّتِهم إيايَ، ثم يَسْتَنُّ بها قومٌ من بعدِهم فيدخلونَ بهم النارَ**»[2].

ومنها سننُ أصحاب الملَلِ الأخرى كما في حديث البخاري[3] الشهير

---

(١) «سنن الترمذي» (٢٦٣٠) وقال: حسن صحيح.

(٢) ذكرها القرطبي في تفسيره (٧: ٣٩١)، وفي «التذكرة» ص٧٩٥، والفتنة هي القتال الذي وقع بين الصحابة رضي الله عنهم، وقد تقدم الكلام عن تحصين النصوص للصحابة في فقه الإشارات والبشارات والنذارات والحصانات وشرف العدالة والسند.

(٣) «صحيح البخاري» (٧٣٢٠) .

«**لَتتبعُنَّ سُنن مَن كان قبلَكم..**»[1].

وعلى هذا التفصيلِ تنقسمُ (سننُ المواقفِ) إلى قسمينِ:

* **سنةٌ نبويةٌ أبويةٌ**، وهي سنةُ النبيِّ ﷺ ومواقفُه ومواقفُ خلفائِه الراشدينَ المهديينَ إلى يومِ الدينِ[2].

* **وسنةٌ أنويةٌ شيطانيةٌ**، وهي سنةُ ومواقفُ الدجاجلةِ والكفارِ والمنافقينِ،

---

(١) قال الحافظ في الفتح: بفتح السين للأكثر ، وقال ابن التين: قرأناه بضمها، وقال المهلب: بالفتح أولى لأنه الذي يستعمل فيه الذراع والشبر وهو الطريق . قلتُ : وليس اللفظ الأخير ببعيد من ذلك. اهـ (٢٠ : ٣٧٨).

قلتُ: رحم الله ابن التين والمهلب لو رأوا زماننا وما فيه.. إن ما وقفنا عليها من النصوص ذات المعاني المستجدة يرجح رواية الضم للسين التي ذكرها ابن التين ويبعد رواية الفتح. فما وقعنا فيه نحن المسلمين المعاصرين ليس تتبع الوسائل التي مضى عليها النصارى واليهود وليس تقليدهم في تطوير دولهم وخطوات التنمية في تعليمهم وتربيتهم وثقافتهم وكأننا نتبع طريقهم، بل لقد تشربنا تفكيرهم حتى صارت سيرنا كسيرهم وتطابقنا معهم في الولاء والبراء للدنيا والمال وكراهية الموت بل وفي مواقفنا من كل ما استجد تمام المطابقة. أي: ربما كنا ننتهج أساليبهم كخارطة طريق في مرحلة العلمنة ، وأما الآن فنحن نسخة منهم.

(٢) ومن سنن الخلفاء المهديين التي ستأتي المواقف النبوية في العدل التي يحييها الإمام المهدي عند مجيئه والتي بها ينشر الخير في أرجاء المعمورة، ففي «المنار المنيف»: ... فيقسم المال ويعمل في الناس بسنة نبيهم ويلقي الإسلام بجرانه في الأرض . وإسناده حسن كما ذكر ابن القيم (١١٠). وقد بوَّب أبو عوانة الإسفراييني (٣١٦ هـ) في «المستخرج على صحيح مسلم» (كتابَ الأمراء) (٤: ٤٢٠) بقوله: بيانُ ذكرِ الخبرِ الموجب طاعة الإمام وإن لم يهتدِ بهديِ النبي ﷺ ولم يستنَّ بسنتِه.

وتقابُلها في المعنى الشرعيِّ (البدعةُ السيئةُ) ومحدثاتُ الأمورِ، وهي ما يجري من سننٍ ومواقفَ على أيدي أولئك الكفارِ والدجاجلةِ والمنافقينِ ويستنُّ بها المسلمون بعلمٍ أو بغيرِ علمٍ. وفي ذلك يقول ﷺ: «**مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي فَعَمِلَ بِهَا النَّاسُ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا لَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ ابْتَدَعَ بِدْعَةً فَعُمِلَ بِهَا كَانَ عَلَيْهِ أَوْزَارُ مَنْ عَمِلَ بِهَا لَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِ مَنْ عَمِلَ بِهَا شَيْئًا**»[1].

وبهذا يكون فقهُ التحولاتِ وعلاماتِ الساعةِ قد أعادَ تعريفَ البدعةِ إلى موقعِه الأساسيِّ لا السياسيِّ، فتكونُ البدعةُ الأنويةُ هي مخالفةُ المواقفِ الشرعيةِ للنبي ﷺ وخلفائِه الراشدينَ المهديينَ إلى يومِ الدينِ، أما مفهومُ البدعةِ الشرعيةِ التي أَصَّلَهَا الفقهاءُ فهي مخالفةُ الهديِ النبويِّ والأحكامِ الشرعيةِ لما ثَبَتَ من السُّنَنِ القوليةِ والفعليةِ والتقريريةِ المرتبطةِ بعلمِ الأصولِ ومخرجاتِه وثمراتِه.

ولهذا نهى النبيُّ ﷺ عثمانَ بنَ عفانَ يومَ الدارِ أنْ يَخْلَعَ نفسَه وقال له: لا تَخْلَعْهَا وَصُمْ ذلك اليومَ تُفْطِرْ عِنْدِي[2]. قال عبدُالله بنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لعثمانَ يومَ الدارِ: (فلا تَخْلَعْ قَمِيصَ اللهِ عليكَ فيكونَ سُنَّةً: كُلَّما كَرِهَ قومٌ خليفةً خَلَعُوهُ وَقَتَلُوهُ)[3].

وقد تَرَسَّخَتْ هذه البدعةُ في مرحلةِ الضعفِ من العهدِ العباسيِّ، وكلما كَرِهَ العجمُ خليفةً خَلَعُوه أو قَتَلُوهُ.

---

(١) «سنن ابن ماجه (٢٠٩).

(٢) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٣٩/ ٢٩٠)، و«الكامل» لابن عدي (٥٩٠) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ذكره القرطبي في «التذكرة» ص(١: ١٠٧٤).

وعلى هذا فمثلُ هذا الموقفِ سُنَّةٌ شيطانيةٌ نَهَى عبدُاللهِ بنُ عُمَرَ سيدَنا عثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن فِعْلِها واختارَ له الموتَ والشهادةَ.

وعلى هذا المعنى فالحديثُ يجعلُ من مفهومِ قولِه ﷺ: «**عليكم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخلفاءِ الرَّاشِدين المهدِيِّين**» غيرَ المفهومِ المُتداوَلِ لدى عُلماءِ الأُصولِ، فعُلَماءُ الأُصولِ يتناولون في هذا الحديثِ ما ترتَّبَ على تقسيمِ السُّنَّةِ أُصولياً إلى السُّنَّةِ (القوليَّةِ والفعليَّةِ والتَّقريريَّةِ)، وهو ـ بلا شَكٍّ ـ أحَدُ معاني الحديثِ لمن فَهِمَ ذلك، أما فِقهُ التَّحوُّلاتِ فيتناوَلُ مواقِفَ الرَّسولِ ﷺ ومواقِفَ الخُلفاءِ الرَّاشِدين[1] من حيثُ الأخلاقُ والقِيَمُ لا مِن حيثُ مادَّةُ النَّصِّ المكتوبِ.

وبهذا يُفهَمُ أنَّ لفظَةَ السُّنَّةِ في هذا الحديثِ يُقصَدُ بها (الموقِفُ) ويؤكِّدُ ذلك ما هو معلومٌ من أنَّ السُّنَّةَ هي لدى العُلماءِ هي (قولُ رسولِ الله ﷺ وفعلُهُ وتقريرُهُ) لا غيرَ ذلك.

---

(١) وقد أثر هذا المعنى فيما رواه نعيم في «الفتن» (٢٤٥) عن عبد الله بن نعيم المغافري قال: سمعت المشيخة يقولون: (من أمر بمعروف ونهى عن منكر فهو خليفة الله في الأرض وخليفة كتابه وخليفة رسوله ﷺ). والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر في هذا الأثر من اجتمعت فيه شروط الهدى والرشد بلا خلاف، ويؤيد هذا المعنى قول الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (جعل الله في هذه الأمة خمس فتن: فتنة عامة، ثم فتنة خاصة، ثم فتنة عامة، ثم فتنة خاصة، ثم الفتنة السوداء المظلمة التي يصير فيها الناس كالبهائم، ثم هدنة، ثم دعاة إلى الضلالة، فإن بقي لله يومئذ خليفة فالزمه)، والشاهد هنا مفهوم الخليفة المأخوذ من الهدى والرشد، والرواية في «مصنف عبدالرزاق» (٢٠٧٣٣)، وهي حسنة الإسناد، انظر «العراق في أحاديث الفتن» لأبي عبيدة مشهور (٢: ٥٤٠).

لكنَّ الحديثَ يُشيرُ إلى سُنَّةٍ تَخُصُّ الخُلفاءَ، فهل هناك سُنَّةٌ أخرى غيرُ سُنَّةِ النَّبيِّ ﷺ للخُلَفَاءِ؟

والجوابُ: أنَّ مفهومَ السُّنَّةِ هنا ـ في فقهِ الدَّعوَةِ وفقهِ التَّحوُّلات ـ غيرُ مفهومِ السُّنَّةِ عند عُلماءِ الأُصولِ المُقرَّرَةِ، فَسُنَّةُ النَّبيِّ ﷺ وسُنَّةُ الخُلفاءِ هي مواقِفُهم عند الاختلافِ والاحتدام، ورُبَّما خالفوا المألوفَ المُتعارَفَ عليه لدى العلماء، ولهذا يقولُ: «**عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ**»(١) حيثُ إنَّ النُّصوصَ مُختَلِفَةٌ ومُتَنوِّعَةٌ ويجري الاجتهادُ مجراهُ من الاختلافِ ووُجهاتِ النَّظَرِ المشروعةِ، أمَّا المواقِفُ فهي الاجتهادُ الذَّاتي بعد النَّظَرِ في السُّنَنِ الواردةِ وما تقرَّرَ بعدها من المواقِفِ، كما فعل الخليفة أبوبكرٍ الصديقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في محاربةِ مانعي الزكاةِ وتنازل الإمام الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الخلافة.

فيتأصَّلُ بهذا المفهوم أنَّ سُنَّةَ المواقفِ هي سُنَّةُ التَّطبيقِ الأخلاقيِّ في فِقهِ الدَّعوَةِ لمجموعِ السُّنَنِ القولِيَّةِ والفِعليَّةِ والتَّقريريَّةِ وما تفرَّعَ عنها من اجتهاداتٍ في الأُصولِ وفِقهِ المذاهِبِ، وبهذا الفَهمِ يكون فِقهُ الدَّعوَةِ وِعاءاً جامعاً وضَابِطاً بِفقهِ التَّحوُّلاتِ لِسُلوكِ عُلماءِ الأُصولِ وعُلَماءِ المذهَبيَّةِ في علاقَتِهم بِبَعضِهِم البَعضِ، وعلاقاتِهم بالمُخالِفِ والمُعارِضِ وعلاقَتِهم بِتَطبيقِ الشَّريعَةِ في الشُّعوبِ. فالشَّريعَةُ قبل أن تكونَ قانوناً أو دُستوراً لِفَرضِ نِظامٍ شَرعِيٍّ وإقامَةِ حُدودٍ فهي مواقِفُ دَعَوِيَّةٌ لذاتٍ مُطَهَّرَةٍ ومعصومةٍ وسُلوكٌ لِقُدوَةٍ حَسَنَةٍ وانعكاساتٌ شَرعِيَّةٌ لِوَحيٍ رَبَّانيٍّ وسَمُوٍّ إيمانيٍّ لا مجالَ فيها لاستفزازاتِ الطَّبعِ أو تطويعِ نُصوصِ الشَّرعِ، قال فيه تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ

(١) سبق تخريجه.

رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ١ - ٤].

كما أنَّ «سنةَ الدلالةِ» المقررةِ أصالةَ فقهِ التحولاتِ وسلامةَ متجهِه الاستدلاليِّ تَسُدُّ الثغرةَ التي فتحتْها مدارسُ القبضِ والنقضِ في المرحلةِ، والتي طوَّعتِ النصوصَ لإحراجِ الأمةِ فيما لا يلزمُها الإحراجُ فيه، فالقائلون: (هذا لم يكنْ على عهدِ رسول الله ﷺ أو لم يكنْ على عهدِ صحابتِه) يَرَوْنَها استدلالاً على الجنوحِ والمخالفة لما أصلوه أو فهموه، مع أنَّ هذه العبارةَ لا أصلَ لها في الاستدلالِ بعد أن قررَ العلماءُ في ثوابتِ الأصولِ أنّ الاستدلالَ يكون بالسنةِ القوليةِ والفعليةِ والتقريريةِ، سواءً كان الفعلُ على عهدِ رسولِ الله ﷺ وصحابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أو لم يكنْ. فلَرُبَّ أمرٍ لم يكنْ على عهدِ رسول الله ﷺ ولا على عهد صحابتِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ـ وتأكدتْ صحة العملِ به ـ مبنيٌّ على السننِ المقَرَّرَةِ.

ومن أجل هذا القيد الشرعي ظهر معنى «سنة الدلالة» في علم فقه التحولات كما سبقت الإشارة إلى تعريفها، ليؤكد شرعية العمل بما لم يكن على عهد رسول الله ﷺ ولا عهد صحابته ما دام له دلالة من الكتاب أو السنة.

الوَحْدَةُ الشَّرْعِيَّةُ لِأَرْكَانِ الدِّينِ الأَرْبَعَةِ وَنَفْيُ عَلَاقَةِ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ بِاليَوْمِ الآخِرِ

إِنَّ مهمةَ حديثِ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مهمةٌ ذاتُ مدلولاتٍ عظيمةٍ جعلتْ علماءَ الأصولِ يطلقون عليه حديثَ «أمِّ السُّنَّةِ» برغم تجاوزِهم للركنِ الرابعِ منه، وحصرِهمُ الركنيةَ على الثلاثةِ الثوابتِ الأولى: الإسلامِ والإيمانِ والإحسانِ فقط، وربما كان عذرُهم اعتناؤُهم بما هو أهمُّ في نظرِهم لإقامةِ البناءِ العقديِّ والشرعيِّ والسلوكيِّ الذي تستقيمُ به شؤونُ الأمة، أما النواقضُ والنقائضُ والعلاماتُ والأشراطُ فقد كان حظُّها عندهم إلحاقَها بركنِ الإيمانِ باليومِ الآخرِ لتصبحَ فرعاً لا يتجزأُ من العلمِ بأمرِ الآخرةِ.

والسياقُ الشرعيُّ في حديثِ جبريلَ ينفي هذا الإلحاقَ ويُفْرِدُ علاماتِ الساعةِ عن الإيمانِ باليومِ الآخرِ، ويضعُ هذا العلمَ مستقلاً بذاتِه ومراتبِه ومقاماتِه وعلومِه، وأنّ الإيمانَ باليومِ الآخرِ ركنٌ من أركانِ الإيمانِ يربطُ بين المرءِ وعالمِ الموتِ والبرزخِ والبعثِ والنشورِ، مع ذلك اليوم من أمورِ الحسابِ والعقابِ ورفعِ الدرجاتِ ونيلِ الثوابِ.

وإذا كانَ هناك ربطٌ بين اليومِ الآخرِ وعلومِ الساعةِ فإن المقصودَ بالساعةِ حلولُ ساعةِ الموتِ وما بعدَها كما سبق ذكره،وأمّا ما نحن بصددِه في إثباتِ ركنيةِ الركنِ الرابعِ فهو علاقتُه بالحياةِ وأمورِ تقلباتِها وتحولاتِها وما يطرأُ على الإنسانيةِ وعلى الأمةِ الإسلاميةِ من حبكةِ الشيطانِ وجنوده، وما يقع من فتنةِ المسيخِ الدجالِ وهيمنتِه المتوقعة على الأممِ والشعوبِ، وما يسبقُ هذه

الهيمنة من امتداد فتنته في مجموعِ حياةِ الأمةِ حاكماً ومحكوماً عالماً ومتعلماً، حتى يُترَكَ ذكرُه على المنابرِ ويخرجَ في خِفَّةٍ من الدِّينِ وإدبارٍ من العِلمِ.

وفي فهمِنا المحدودِ نعتقدُ أنَّ من معاني «**يَخْرُجُ في خِفَّةٍ مِنَ الدِّينِ**»[1] نَقصَ رُكْنِهِ الرَّابِعِ، وأنّ من معاني «**فِي إِدْبَارٍ مِنَ العِلْمِ**»[2] إهمالَ أركان الدين كلها وكلِّ تفريعاتِها كفقهٍ شرعيٍّ للحياة والتحولاتِ.

وعلى هذا التأصيلِ الشرعيِّ يصبحُ الركنُ الرابعُ من أركان الدينِ متحرراً من تَبَعِيَّتِهِ لركنِ الإيمانِ باليومِ الآخرِ ومنفصلاً عنه ومستقلاً بذاتِه ضِمْنَ حديثِ جبريلَ بأركانِه الأربعةِ، وعلينا أن نَعْذُرَ علماءَ الأصولِ ومَن نَهَجَ مُنْتَهَجَهُمْ في تعطيلِ ركنيةِ العلاماتِ، ربما لعدمِ الحاجةِ إليه إبانَ مرحلةِ التدوينِ والبناءِ الشرعيِّ لمراتبِ علومِ العقائدِ والأحكامِ الشرعيةِ ومراتبِ السلوكِ، وربما لسببٍ آخر اللهُ أعلمُ به.

وحديثُ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ «أُمُّ السُّنَّةِ» يحتاجُ إلى إعادةِ القراءةِ النَّصِّيَّةِ والتبويبِ الأصوليِّ لركنيّتِه كي ينسجمَ مع الوَحدةِ الموضوعيةِ للحديثِ ذاتِه، ولوظيفتِه الهامةِ بين الأركان الأخرى. وخصوصاً في عهدِنا المتَّصِفِ بالنقضِ والقبضِ والمتصفِ كذلك بما لا يَمُتُّ إلى «الديانةِ الحقَّةِ» بِصِلَةٍ. وَلَسْنَا في حاجةٍ لإصدارِ حكمٍ لمن آمنَ به أو من لم يُؤْمِنُ به، فهذا ليس من مَهَمَّتِنا، وربما اشتغلَ به البعضُ تبعاً للمألوفِ لدى علماءِ الأصولِ وفقهاءِ الثوابتِ.

والمسألةُ مسألةُ إعادةٍ واعيةٍ للقراءةِ والتوظيفِ فحسبُ، وبهذِه الإعادةِ

(١) «المستدرك على الصحيحين» (٨٦١٣).

(٢) «مسند أحمد» (١٦٦٦٧).

تتجددُ القراءةُ مرتبطةً بالمعاني الشرعيةِ لفقهِ التحولاتِ.

إنَّ ربطَ الركنِ الرابعِ من أركانِ الدينِ بالأركانِ الثلاثةِ ودراستَها مجتمعةً كأصلٍ شرعيٍّ للديانةِ هو من وجهة نظرنا أساسُ تصحيحِ كثير مما حلَّ بالأمةِ من طائفيةٍ وقبليةٍ عصبيةٍ وصراعٍ طبقيٍّ واعتقاديٍّ واجتماعيٍّ وسياسيٍّ ولو مِن بعضِ الوجوهِ، حيث إنّ انعدامَ دراسةِ هذا الركنِ الهامِّ فَتَحَ باباً من التضاربِ والتناقضِ والتحريشِ والمنافسةِ بين المُصَلِّينَ على غيرِ بَيِّنَةٍ حتى حلَّ بالأمةِ ما أخبرَ عنه ﷺ من موعوداتِ الركنِ الرابعِ في مثل قوله ﷺ: «**إنَّه ستأتي على الناس سِنونَ خَدَّاعةٌ: يُصدَّقُ فِيها الكاذِبُ، ويُكذَّبُ فِيها الصادِقُ، ويُؤتمَنُ فِيها الخَائنُ، ويُخوَّنُ فِيها الأمينُ، وينطق فيها الرويبضة**»، قيل: وما الرويبضة يا رسول الله، قال: «**السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ في أَمْرِ العَامَّةِ**»[1].

ومثلُ هذه الظواهرِ لا تخصُّ قضايا الحياةِ الدنيويةِ، بل تشملُ الديانةَ والأمانةَ والموروثاتِ والقِيَمَ والأسانيدَ والعدالةَ. وأمرُ اللهِ في عبادِه كائنٌ، والقضاءُ والقدرُ لا مفرَّ منه، ولكنّ التبيانَ والوضوحَ وفهمَ الأمورِ على مقتضاها الشرعيِّ خيرٌ من العَمَايَةِ والجهالةِ.. قال تعالى: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ [الأنفال:٤٢].

والشيطانُ مخلوقٌ حاذقٌ فَطِنٌ، يُخْرِبُ البيوتَ بأيدي أهلِها، ويبثُّ روحَ الفُرقةِ والبغضاءَ والحسدِ بين المُصَلِّينَ كما بَثَّهَا من قبلُ بين الأمم، بدليلِ قولِ النبيِّ ﷺ: «**دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ الْبَغْضَاءُ والحَسَدُ، وَالْبَغْضَاءُ هِيَ**

(١) «مسند أحمد» (٧٩١٢).

الْحَالِقَةُ ، حَالِقَةُ الدين لَاحَالِقَةُ الشَّعَرِ »[1].

وهـذا النصُّ النبويُّ بـارزُ المعنى في إصابـةِ الأمةِ المحمديةِ بمـا أُصيبتْ به الأممُ السـالفةُ من أَثَرِ الطِّبَاعِ الشـيطانيةِ، ولا علاجَ له غيرَ ما أخبرَ عنه ﷺ في باقي الحديث ، وهو قوله ﷺ : «**أَوَلَا أَدُلُّكُمُ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟... أَفْشُـوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**»[2] ، وإفشاءُ السـلامِ بكافة معانِيهِ علاجٌ نبويٌّ لا بديلَ عنه ولا خيـارَ أفضـلَ منه، ولعل فقهَ التحـولاتِ يعطي مدلـولاتِ الحديثِ الآنف ذكره بُعداً عملياً في الواقعِ أكثرَ ممّا عَرَفَهُ أو عَرَّفَهُ الآخرونَ.

والآخرونَ الَّذِينَ لم يُفَسِّرُوا النُّصُوصَ إلا بما فَسَّرَهُ الآخذونَ بثلاثيةِ الأركانِ صَعُـبَ عليهـم من كُلِّ الوُجُـوهِ رَبْطُ المعاني الشـرعيةِ في أحاديـثِ العلاماتِ والمتغيـراتِ بالواقعِ لانعـدامِ الركنيةِ لهذا الفقهِ الهامِّ ، وربما فسَّـروا الحديثَ المشـارَ إليـه كغيرِه مـن الأحاديثِ على صفةِ السـردِ والحكايـةِ والتحذيرِ من تلـك الظواهـرِ بالعمـومِ.. أمـا فقهُ التحـولاتِ فمِن وظائِفـه الربـطُ الوثيقُ بين الثوابـتِ ومعرفةُ أوعيتِهـا وأمكنتِها ومادةِ علمِها وبين حقيقـةِ أهلِها والناطقينَ بِهَـا ، كما أَنَّ مِن وَظَائِفِه الربطُ الوثيقُ بين المتغيراتِ وأسـبابِها ولغتِها وهويتِها وبيـن نقطةِ التحولِ التي أبرزتْ مُحدِّثِيهـا وفقهاءَها وأعلامَها وحكامَها، وكان هذا الفنُّ سـمةَ العديـدِ من الصحابةِ وآلِ البيـتِ وعلماءِ الأمـةِ الذين عَاصَرُوا التحـولاتِ وشـهدوا المتغيراتِ منـذ العصـرِ الأولِ، واتخـذوا مواقفَهُم وَفْقَ قِراءَتِهِمُ الشرعيةِ للحوادثِ والتحولاتِ من واقعِ المعرفةِ للخيرِ وأهلِه وللشـر وأتباعِه، كما تحدثَ عنهم وأخبرَ عن علاماتِهم مَن لا ينطقُ عن الهوى ﷺ.

---

(١) «مسند أحمد» (١٤١٢) .

(٢) «صحيح مسلم» (٥٤) .

تَعْرِيفَاتُ فِقْهِ التَّحَوُّلَاتِ وَعَلَاقَتُهَا بِرُبَاعِيَّةِ الْأَرْكَانِ

فِقهُ التَّحوُّلاتِ **ورد في النص** تسميته بفقه الساعة[1] ، أو فقه أمارات وأعلام وشراط الساعة[2] ، وسماه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: العلمُ بما كانَ وما هو كائنٌ إلى أن تقومَ الساعةُ[3] .

وفي **الاصطلاح** فتعريفه هو: **الفَهْمُ الشَّرْعِيُّ لِمَا جَرَىٰ وَيَجْرِي مِنْ سُنَنِ التَّغَيُّرَاتِ وَالْمُتَغَيِّرَاتِ فِي الحَيَاةِ الإِنْسَانِيَّةِ وَالكَوْنِيَّةِ، وَمَا طَرَأَ وَيَطْرَأُ مِنْ مُسْتَجَدَّاتِ العِلْمِ النَّظَرِيِّ وَالتَّطْبِيقِيِّ وَالثَّقَافَةِ وَالحَوَادِثِ وَالفِتَنِ فِي مَرَاحِلِ الحَيَاةِ الإِنْسَانِيَّةِ عُمُوماً وَمَرَاحِلِ الأُمَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ خُصُوصاً إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ ، إِمَّا عَلَىٰ صِفَةِ القِرَاءَةِ الاِسْتِبَاقِيَّةِ**

---

(١) من قول ابن مسعود لما أراد أن يتلقى هذا العلم عن النبي ﷺ فيما رواه الطبراني في «الكبير» (١٠٥٥٦)، قال ابن مسعود: سَلْ يَا سَعْدِيُّ، فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، هَلْ لِلسَّاعَةِ مِنْ عِلْمٍ تُعْرَفُ بِهِ السَّاعَةُ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَاسْتَوَى جَالِسًا، فَقَالَ: يَا سَعْدِيُّ، سَأَلْتَنِي عَمَّا سَأَلْتُ عَنْهُ رَسُولَ الله ﷺ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهَّ، هَلْ لِلسَّاعَةِ مِنْ عِلْمٍ تُعْرَفُ بِهِ السَّاعَةُ فَقَالَ لِي: «**يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، إِنَّ لِلسَّاعَةِ أَعْلَامًا، وَإِنَّ لِلسَّاعَةِ أَشْرَاطًا، أَلا وَإِنَّ مِنْ أَعْلامِ السَّاعَةِ**...» الحديث.

(٢) من قول جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**فأخبرني عن أماراتها**» «صحيح مسلم» (٨) ، ومن قول النبي ﷺ لابن مسعود: «**يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، إِنَّ لِلسَّاعَةِ أَعْلامًا، وَإِنَّ لِلسَّاعَةِ أَشْرَاطًا**» الطبراني في «الكبير» (١٠٥٥٦).

(٣) من قول عمرو بن أخطب في «صحيح مسلم» (٥١٤٩): «**فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ**»، ومن قول حذيفة في «صحيح مسلم» (٥١٤٨): «**أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ**».

لِلْحَوَادِثِ وَالوَقَائِعِ ، وَإِمَّا عَلىٰ صِفَةِ القِرَاءَةِ الِاسْتِقْرَائِيَّةِ لِتَارِيخِ الأُمَمِ وَالشُّعُوبِ مِنْ مَصَادِرِهَا الأَسَاسِيَّةِ : القُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، ومادَّتُهُ: ما تقرَّرَ في هذا الشَّأنِ من كتابِ اللهِ تعالى ومِن سُنَّةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وما خَدَمَهُ العُلَماءُ من تقسيمِ العلاماتِ والتَّصنيفِ فيها.

والتعريفُ هو مفتاحُ سِرِّ العبارةِ أو الكلمةِ ذاتِ الهدفِ المقصودِ، وقد اعتنىٰ العلماءُ بالتعريفاتِ ومعانِيها حتىٰ صارتْ عِلْمًا مستقلًّا له تصنيفاتُه ومؤلَّفاتُه في شَتّىٰ الفنونِ، إلّا أنَّ فقهَ التحولاتِ لم يَحظَ بهٰذه الخاصيةِ ولم يَعْتَنِ أَحَدٌ فيما نَعْلَمُ بقاموسِه وتعريفاتِه، وظَلَّ التعريفُ لعلاماتِ الساعةِ وأشراطِها محدودَ الخدمةِ قليلَ الِاعتناءِ، مع أهميةِ ورحابةِ مواضيعِه وتَشَعُّبِها وسَعَةِ محتوياتِه.

وقد حَاوَلْنَا مُنْذُ بُرُوزِ الفكرةِ المتاحةِ من عندِ اللّٰهِ سبحانه وتعالىٰ لنا ـ وربما لِغَيرِنا أيضاً ـ أَنْ نَضَعَ أصولَ التعريفِ بهٰذا العلمِ ، ونُفَصِّلَ ما تَيَسَّرَ لنا من قاموسِه اللفظيِّ مع شرحِ معناهُ الشرعيِّ ؛ ليصبحَ العملُ به والاستدلالُ بتعريفاتِه سهلَ المنالِ والتناولِ ، حيثُ إنَّ علمَ الساعةِ المسمىٰ بفقهِ التحولاتِ يرتبطُ ارتباطاً وثيقاً بكافةِ علومِ الثوابتِ الثلاثةِ ولا ينفصمُ أحدُها عن الآخرِ؛ لأنّها مِن مشكاةٍ واحدةٍ ؛ وفي سياقِ حديثٍ واحدٍ يحملُ وحدةَ الموضوعِ ووضوحَ الهدفِ والغايةِ ؛ وإنْ تعددتْ بعدَ ذٰلك اقتباساتُ الباحثِ أو العالمِ في أرجاءِ المواضيعِ المتنوعةِ والأحاديثِ الواردةِ ذاتِ العلاقةِ بعلاماتِ الساعةِ.

لقد امتلأتْ أحاديثُ مَنْ لا ينطقُ عن الهوىٰ ﷺ بالكلماتِ ذاتِ المدلولِ الخاصِّ المرتبطِ إمّا بأحداثِ الزمانِ أو المكانِ أو الإنسانِ، سواءً فيما سبقَ من

تاريخِ الأمم والشعوب والرسالاتِ، أو مِمّا عاصرَه ﷺ وشاهَدَه من أمرِ الدينِ والدنيا، أو ما وَصَلَ إليه العلمُ به من رَبِّه عزَّ وجلَّ مِمّا سَيَؤُولُ إليه المسلمونَ من جهةٍ، أو ما سيؤولُ إليه العالمُ الإنسانيُّ كلُّه من جهةٍ أخرىٰ، وما ينتظرُ العالمَ من تَغَيُّراتٍ كونيةٍ أو بيئيةٍ أو مناخيةٍ أو ثقافية أو علمية مستجدة، مما لا يَدَعُ مجالاً للشَّكِّ في استيعابِ الشريعةِ ومقوماتِها كافةَ شؤونِ الدينِ والدنيا، عَلِمَ ذٰلك من عَلِمَهُ وحَفِظَهُ مَن حَفِظَهُ ونَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ، فعَنْ أبي الدرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما يرويهِ الطبرانيُّ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَقَدْ تَرَكْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا من طَائِرٍ فِي السماءِ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ إلا وقد أَوْجَدَ لَنَا فِيهِ عِلْمًا[1]، قَالَ: فَقَالَ ﷺ: «**مَا بَقِيَ شَيْءٌ يُقَرِّبُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُ مِنَ النَّارِ، إِلا وَقَدْ بُيِّنَ لَكُمْ**»[2]، وفي حديثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا أَكَلَ الرِّبَا، فإن لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابَهُ مِنْ بُخَارِهِ**»[3].

إنه قولُ من لا يَكْذِبُ ولا يُكذَّبُ ﷺ، وبهذا القول يظهر مفهوم الارتباطِ الحقِّ بين الديانةِ والتاريخِ كما يظهرُ فكُّ الارتباطِ بينهما بمثلِ هٰذه النقائضِ الخطيرةِ.

وعلىٰ هذا القياسِ يكونُ للتعريفاتِ موقعٌ هامٌّ من الديانةِ الإسلاميةِ، وخصوصاً في علاماتِ الساعةِ ومسائلِ الركنِ الرابعِ من أركانِ الدينِ إذا قُرِئَتْ

---

(١) «مسند البزار» (٣٨٩٧).

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (١٦٤٧)، «سلسلة الأحاديث الصحيحية» للألباني (١٨٠٣).

(٣) «سنن أبي داود» (٣٣٣١)، وفي رواية: «**أصابه من غُبارِه**»، و«المستدرك على الصحيحين» (٢١٦٢).

علىٰ الوجهِ المطلوبِ.

فعلىٰ سبيلِ المثالِ لا الحصرِ، عند عرضِنا لحديثِ الأعرابيِّ السائلِ عن الساعةِ وقولِ رسول الله ﷺ: «**إِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فانْتَظِرِ السَّاعَةَ**» ثُمَّ قولِ الأعرابيِّ: وكيف إضاعتُها يا رسولَ الله؟ ثم قولِه ﷺ: «**إذا أُسْنِدَ الأمرُ إلىٰ غَيْرِ أَهْلِهِ**»(١)؛ نَجِدُ في هٰذا الحديثِ بعضاً من التعريفاتِ الَّتِي تَرْبِطُ بين الديانةِ كشريعةٍ، وبينَ التاريخِ كمرحلةٍ وأحداثٍ وتحولاتٍ، ومنها:

«**إِذَا ضُيِّعَتْ**» الإضاعة. «**الأَمَانَةُ**» منهجيةُ الحقِّ التي جاءَ بها رسولُ الله ﷺ في الحكمِ والعلمِ والسلوكِ.

«**إذا وُسِّدَ**» سياسةُ المؤامراتِ: التوسيد والإسناد.

«**الأمرُ**» أمر الحكم و أمر العلم.

«**إلىٰ غَيْرِ أَهْلِهِ**» إلى غير عُدُولِ الأُمَّة، من وكلاء عمل، ورؤساء منظمات ودول، كما قال رسول الله ﷺ: «**حَتّى يَبْقَى مَنْ لا يَعْلَمُ، فَيَتَّخِذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَّالاً فَيُسْتَفْتَوْا فَيُفْتُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَيُضِلُّوا وَيَضِلُّوا**»(٢).

وهٰذه التعريفاتُ تربطُ الأمةَ بمراحلَ وشخوصٍ وتحولاتٍ خطيرة ذاتِ قيمةٍ اعتباريةٍ في مسيرةِ الديانةِ وتاريخِها المتحولِ.. ربما لا يُولي لها اليومَ العلماءُ بالاً ولا اهتماماً.. ولا يُمْكِنُ لَهُمْ بِأَيِّ حالٍ من الأحوالِ أنْ يَضَعُوا نقاطَ

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٤٩٦)، وفي رواية: «**إذا وُسِّدَ الأمرُ**».

(٢) هذه رواية أحمد وصححها أحمد شاكر (٦٨٩٦)، وأما رواية البخاري (١٠٠) فلفظها: «**حتى إذا لم يُبقِ عالماً اتخذ الناسُ رؤساءَ جهالاً فسُئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**».

المعاني النبويةِ علىٰ مباني المرحلةِ الغثائيةِ لانعدامِ العلمِ بتبويبِ الركنِ الرابعِ من أركانِ الدينِ، فضلاً عن تفصيلاتِه وتفريعاتِه والإشاراتِ المستقبليةِ فيه. وهم مَعذورونَ فيما سبق، أما اليومَ فلا عُذرَ لنا ولا لغيرنا في وجوبِ لَفْتِ النظرِ للربطِ الشرعيِّ بينَ الديانةِ والتاريخِ علىٰ ضوءِ دراسةِ الركنِ الرابعِ من أركانِ الدينِ.

إعذارُ الأئمّةِ السّابقينَ في عزلِهمُ الرّكنَ الرّابعَ منْ أركانِ الدّينِ

كانَ لابد لي من الكتابةِ في هذه المسألةِ التي شغلتْ العشرات من المعاصرين الذين تلقُّوا أمر الإعادة للركنية الرابعة بالقبول والاقتناع، ولكنهم شغلوا أنفسهم بإحراجِ السابقينَ وإحراجنا حولَ مسألةِ الإثمِ المترتبِ على إغفالِ الركنِ أو عدمَ الإيمانِ به ، ولم يقف الأمر عند هذا الحدِّ بل تعداهُ لدى الآخرين إلى مطالبتهم تجنيبَ الأمةِ التناولَ لركنيةِ الركنِ الرابعِ تماماً طلباً للسلامةِ في إصدارِ الأحكامِ المفترضة، وقالوا: كفانا التناول فإنَّ ما وسعَ السَّلف يسعُ الخلَف ، وكَثُرَ اللجاج وأقاويل الإحراج، حتى شعرنا بضرورةِ التناول للموضوعِ من وجهة «فقه التحولات» لا من وجهة نظرنا، حيث إنَّ الغالبيةَ من معاصرينا يعتبرونَ الأمر المطروحَ نزوةَ ذاتٍ وفكرةَ مفكرٍ وثمرةَ قراءةٍ شخصية وإلى غير ذلك.

ولا بد أن نعذرهم بوَعي، كما نعذرُ السابقين الذين لم يتناولوا الموضوع من أساسه، ونبسط لمعاصرينا وجهةِ نظرِ صاحب الملَّة ذاته ﷺ ليتفهَّموا أهميةَ ما يقوله من لا ينطق عن الهوى ﷺ حولَ الموضوعِ، أو في أقلِّ التقديراتِ فهمنا عن الموضوع.

فهناك الحديث الذي رواه ابن ماجه وأورده صاحب كنز العمال برقم (١٠: ٢١٦) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا لعنَ آخرُ هذه الأمةِ أوَّلَها فمَن**

كان عنـدَه عِلمٌ فَلْيُظْهِرْهُ ، فإنَّ كاتـمَ العلمِ يومئذٍ ككاتِمِ ما أُنزلَ على مُحَمَّدٍ »[1] وفـي روايـة: «**إذا لعنَ آخرُ هذه الأمةِ أوَّلَهـا ، فمَن كَتَمَ حَدِيثاً فقـد كَتَمَ ما أَنْزَلَ اللـهُ**»[2] ، وحديث مسـلم عن أبي هريـرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إنَّ الدينَ بَـدَأَ غريباً ويرجعُ غريباً ، فطوبى للغرباء.. الذين يُصْلِحُون ما أَفْسَدَ الناسُ مِن بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي**»[3].

ومـن معاني هـذه الأحاديث يُفهم ضـرورةُ إحياءِ ما أماتَ الناس من السُّـنة، ومنهـا (الركن الرابع من أركان الديـن). كما يجبُ إظهارُ هذا العِلم عند ظهور لعن آخر الأمة لأولها، وفي الحديث وعيدٌ شديدٌ لكاتِم هذا العلم.

والعـذر المعلوم لكتم السـابقين هـذا العلم ما روي عن أبـي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (حفظتُ عن رسـول الله ﷺ وعاءين ، فأما أحدُهمـا فبثثتُه فيكم ، وأما الآخرُ فلـو بثثتُـه قُطِعَ هـذا البلعـومَ)[4]. ففي عصـرِ أبي هريـرة وما تـلاهُ كان التناولُ لهـذا العِلم المختص بالنواقضِ والنقائضِ وعلامات السـاعةِ ومُضلاتِ الفتنِ

(١) «المعجم الأوسـط» للطبراني (٤٣٠) ، ضعيف من تفردات أحد الرواة؛ لكن له روايات أخـرى كابن ماجه (٢٦٣) والبخاري في «التاريـخ» (٢/ ١/ ١٨٠) ، وابن أبي عاصم في «السـنة» (٩٩٤) ، و أبوعمرو الداني في «الفتن» (٢٨٧) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧: ٥) وقال : له متابعة .

(٢) «سـنن ابن ماجه» (٢٦٣٠) ، قال ابن القيم في «تهذيب السـنن» (١٠: ٩٣) وقال: رجاله ثقات.

(٣) «سـنن الترمـذي» (٢٦٣٠) وقـال: حسـن صحيـح ، وفي رواية للخطيـب البغدادي في «شرف أصحـاب الحديث»(١: ٢٣) : «**الذين يحيون سـنتي من بعـدي ويعلمونها عباد الله**» ، وانظر «إتحاف الجماعة» للتويجري (١: ٦٥).

(٤) «صحيح البخاري» (١٢٠) .

والإفصاحِ عنها والتحدُّثِ بها مشغلةً للناس وتحريضاً على إثارةِ الفتنةِ بين المصلِّين، وخاصة في عصرِ المُلك العضوض الذي اضطر فيه غالب علماء الحقِّ والأمانةِ لكتمِ أنفاسهم ومجاراة الواقع في الظاهر، مع الاستقباحِ والاستنكارِ بالباطنِ وصرفِ العقول والقلوب والجوارح إلى بناءِ الثوابت الثلاثة وإشاعةِ أمرها وخبرها وأثرها وتأثيرها باعتبارها القاسم الشرعي المشترك بين الجميع ، أما علمُ الساعةِ ومضلاتِ الفتنِ والأشراطِ والعلاماتِ فأمر يَكشف عيونَ الفتنة ونماذجَ النفاق وزعماءَ الضلالة في مستوى قراري الحُكمِ والعِلم.

وأما في عصرِنا الحديث فالأمر لا يحتاج إلى مجاراة ولا مداراة ؛ لأنَّ مُلَّاك القرار الفِعلي لا صِلة لهم بالإسلام كله، وهُم أعداءُ الأمةِ من الكفار المهيمنين على المقدَّرات الخاصة والعامة، وما الرموزُ الحاكمة والعالمة في مرحلتنا المعاصرة إلا أدواتُ تنفيذ، وعساكر ضبطٍ للواقعِ ومن فيه ، وأمام هذه الحالة المشينة لا يلزمنا التخفِّي ولا الانطواء، بل يلزمنا الإبلاغ والإظهار ؛ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، و﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ [الأنفال:٤٢].

فالعصرُ عصرُ دَجَلٍ ودجاجلة ودجَّال ، ونحن أُمة أُوكِلَتْ إلينا مُهمة الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكرِ إحياءُ السُّننِ الميتةِ والمهجورة، بديلاً عن تحويل العِلم والسُّنن إلى صراعٍ اعتقادي واقتصادي وطائفي وطَبقي كما هو مُلاحظٌ ومُشاهدٌ في المرحلةِ ومسيراتها الانفعالية باسم الديانة والتديُّن.

فإعذارُنا للسابقين واجبٌ، وتحمُّلُنا لمسؤولياتنا في المرحلة المعاصرةِ أكثرُ وجوباً وإلزاماً، وإظهارُ ما كَتَمَ الناسُ من عِلم الكتابِ والسنة حياةٌ وتجديدٌ ووفاءٌ للدينِ والملةِ والأمة المرحومة.. ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[يوسف:٢١].

وأما إصدارُ الأحكامِ على من لم يؤمن بالركنِ الرابعِ ولم يتعبدَ اللهَ بهِ فلا نُقِرُّه ولا ندعو إليه، ولا نرى فيه إلا فتنةً من الفتنِ المضلَّة باسم العقيدةِ والدين، سواء في النظرِ للسابقين أو في النظرِ للمعاصرين ومواقفهم من قبول هذا الركن أو رَدِّه، ومبدأ الحِكمة والموعظة الحسنة تقتضي عرضَ هذا الأمرِ على العقلاءِ والأمناءِ من القادة والعلماء، ليعرف الناس بهم أهمية الابتعاثَ الواعي لهذا الركن المهجورِ على ضوابطِ الشريعةِ ومنهج الوسطية الشرعية والاعتدال الواعي دون غلوٍ ولا جفاءٍ ولا إفراطٍ ولا تفريط[1].

(١) قال الإمام ابن قتيبة: قد كُنا زماناً نعتذرُ من الجهلِ، فقد صرِنا الآن نحتاجُ إلى الاعتذارِ من العلمِ! وكنا نُؤمِّل شُكرَ الناسِ بالتنبيهِ والدلالةِ، فصِرنا نرضى بالسلامةِ! وليس هذا بعجيبٍ مع انقلابِ الأحوالِ، ولا يُنكَرُ مع تغيُّر الزمان، وفي اللهِ خَلَفٌ، وهو المُستَعَانُ. «إصلاح الغلط» ص٤٦-٤٧.

سَلَامَةُ الأُمَّةِ قَضِيَّةٌ مَرْهُونَةٌ بِدِرَاسَتِنَا الوَاعِيَةِ لِلرُّكْنِ الرَّابِعِ

لكلِّ أُمَّةٍ قَضِيَّةٌ، ولكلِّ جيلٍ وظائفُ، وبمقدارِ تربيةِ الجيلِ على وظائفِهِ المنبثقةِ من شرفِ القضايا يَسْطَعُ التفاؤلُ في فمِ الزمان المبتسمِ، ومن قضايانا المصيريةِ معرفةُ هُوِيَّتِنَا التاريخيةِ مربوطةً برباطِ الديانةِ الإسلاميةِ، فالقوميةُ العربيةُ والقبَليةُ والأسرةُ ليستْ رابطَنا العالميَّ وهويتَنا الشرعيةَ، وإنما هي الحدُّ الأدنى من لغةِ التعارفِ، أما الهويةُ التي صَنَعَها الإسلامُ لنا ودعانا إلى تَبَنِّيهَا وإشاعةِ خَبَرِهَا وأثرِها إنما هي (الديانةُ الإسلاميةُ).. تِلكُمُ الديانةُ التي رَضِيَهَا لنا رَبُّنا وَدَعَانَا إليها بقولِه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، فكيفَ ضاعتْ هذه الهويةُ العالميةُ وبقيتْ لنا جزئياتُ التعريفاتِ والتعارف؟

إِنَّهَا (غُرْبَةُ الدِّينِ)، وغربةُ الدِّين فينا متنوعةٌ ومتعددةٌ، ومن أهمِّها وأعظمِها:

* فُقْدَانُ القَرَارِ

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٦-٢٧]، «**لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، كُلَّمَا انتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَمَسَّكَ النَّاسُ بالَّتِي تَلِيهَا، أَوَّلُهُنَّ نَقْضاً الْحُكْمُ وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ**»[1].

لَقَدْ فَقَدَتِ الأمةُ قرارَها العالميَّ فتحوَّلتِ «**الكلمةُ الطيبةُ**» إلى «**كلمةٍ خبيثةٍ**»..

(١) «مسند أحمد» (٢٢١٦٠) «صحيح ابن حبان» (٦٧١٥).

﴿ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾، ولعلَّ كثيراً من أشباهِنا وأمثالِنا لا يَرَوْنَ ما نَراهُ ولا يرغبونَ في صُوَرِ التشاؤم التي نتناولُها عن الأمةِ وعن الكلمةِ الطيبةِ، إذ إنَّهُمْ يَرَوْنَ الأمورَ لا تتجاوزُ المألوفَ، ويَرَوْنَ أنَّهم بخيرٍ وأنّ الحياةَ جميلةٌ ومتفائلةٌ.. فلماذا هذا التحليلُ الغريبُ المريبُ؟

والتحليلُ الغريبُ المريبُ عندهم راجعٌ وعائدٌ إلى فقدانِ قراءتِهم للركنِ الرابعِ من أركانِ الدينِ، ولو قرؤُوه كما قرأه رسولُ الله ﷺ وكما قالَهُ وَأَثْبَتَهُ وكما آمَنَ به صدورُ الصحابةِ وأئمةِ آلِ البيتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لَعَرفُوا سرَّ قوله ﷺ: «**وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَىٰ الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ**»[1]؛ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ عَلِمَ ما لم يَعْلَمْهُ غيرُه، وأهلُ بيته وصحابتُه علموا من عِلْمِهِ ما رَفَعَ لديهمْ مستوى الاستعدادِ واليقظةِ فعاشوا في قلق وراحة به، حتى هانتِ الدنيا وما عليها، أما قضيتُهم المصيريةُ: وحدةُ القرارِ، وسرُّ الاستقرارِ، وضمانُ الاستمرارِ.

وبفقدانِ القرارِ ذهب الاستقرارُ، وتعذَّر الاستمرارُ، وجاء أمر الله.. ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾[النحل:١].. ولسنا في معرضِ محاكمةِ المراحلِ وإدانةِ الأفرادِ، وإنما نحن في تقريرِ الحالِ وتشخيصِ الحالةِ.. فلعل وعسى.

* فُقْدَانُ الهُوِيَّةِ

وبفقدانِ القرارِ العالميِّ ظلتِ القوميةُ والقبليةُ والعصبيةُ والطائفيةُ والعائليةُ

(١) «سنن ابن ماجه» (٤١٩٠)، «سنن الترمذي» (٢٣١٢)، «المستدرك على الصحيحين» (٣٨٨٣) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وتتمته: «**لَوَدِدْتُ أني كنتُ شَجَرَةً تُعضدُ**».

تعبثُ بالاستقرارِ وتدمِّرُ أبنيَتَه وتحرقُ أشجارَه وأفكارَه.. ومَن خَلْفَهَا؟.. الشيطانُ والعقلُ الكافرُ الممسوخُ، حتى أُصيبَ حَمَلَةُ قَرَارَيِ الحكمِ المُجَزَّأِ والعلمِ المقبوضِ بِداءِ الأممِ ، ومِن داءِ الأممِ فُقدانُ الهُوِيَّاتِ، والاعتدادُ بالذواتِ والهيئاتِ والمؤسساتِ والجماعاتِ والجمعياتِ.. ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[الحشر:١٩].

واستأسدَ العدوُّ المجتمِع ، ونال من القرارِ والهويةِ ، وامتلكَ عواملَ الإعادةِ والترتيبِ، فأعاد الصياغةَ الدجَّاليةَ للقرارِ، وحقَّقَ معنىً من معاني مظاهرِ الاستقرارِ، وكسب جولةَ الاستمرار، حتى تمكنَ من صنع قوالبِ الهيشاتِ ومطموسي القرارِ والهُوِيَّاتِ ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[الروم:٧].

ففَصَلَ التعليمَ عن التربيةِ، والدعوةَ عن الحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، والتصوفَ عن المذهبيةِ، والمذهبيةَ عن الإسلام، وسادَ برنامجُ الشَّكِّ والظنِّ بالإثم.. حتى غدا المسلمُ عدوَّ المسلم بعد أنْ كانَ «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ ..التَّقْوَى هَاهُنَا ـ وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ـ بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ ..كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ.. دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ**»[1].

* فُقْدَانُ الكَرَامَةِ

يقولُ المثلُ المعرَّبُ: (الشَّرَفُ شَمْعَدَانٌ تَكْسِرُهُ الحَاجَةُ)، والشرفُ هو الكرامةُ، وهو العزةُ، والعزةُ: غَيْرَةٌ شرعيةٌ على الحقِّ ومُقَوِّمَاتِهِ.. وبالعزةِ والكرامةِ فُتحَ العالمُ الإنسانيُّ بأيدي الحفاةِ العراةِ بسطاءِ الأمةِ.. الذاكرينَ

(١) «صحيح مسلم» (٢٥٦٤).

اللهَ كثيراً والذاكرات ، وفُقِدتِ العزةُ والكرامةُ بأيدي الحفاةِ العراةِ العالةِ رعاءِ الشاءِ يتطاولون في البنيانِ.. تَطَاوُلاً في الماديات والمظاهرِ الزائفةِ مع فشلٍ ذريعٍ في العزةِ والكرامةِ والهويةِ والقرارِ ، ومع تعظيمٍ لما لا يستحقُّ التعظيمَ أَوْرَثَنا خدمةَ مَن لا يستحقُّ الخدمةَ، فتحولَ المجتمعُ إلى عبوديةٍ مقنَّعةٍ ومجتمعِ خدماتٍ.. «**يَبِيعُ أقوامٌ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا**»[1].

وبِضَياعِ الكرامةِ من الأمةِ – وهي جزءٌ من (الأمانةِ) – استبدل الجاهلونَ كرامتَهم باستتباعِ سُننِ اليهودِ والنصارى، وعزَّزُوا حالَ المهانةِ بابتداعِ الصراعِ الاعتقاديّ عند قومٍ ، والصراعِ المذهبيِّ عند قومٍ ، والصراعِ الطائفيِّ عند قومٍ ، والصراعِ الطَّبَقِيِّ عند قومٍ ، والصراعِ الاقتصاديِّ لدى قومٍ ، والصراعِ السياسيِّ لدى قومٍ، وهلمَّ جَرّاً..

وحقّقَ الجميعُ من المُوَحِّدين قولاً والفرقاءِ حالاً وصفةً وعقيدةً ومواقفَ مطلبَ الشيطانِ وسياسةَ الدجالِ.. ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ**﴾[الأنعام:١٥٩]، وحلَّ بهم ما حلَّ بالأمم السابقة «**لَتَتَّبِعُنَّ سَننَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْراً بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُم**»[2].

* فُقْدَانُ الأَجْيَالِ

وكَبُرَ الجيلُ تلوَ الجيلِ تحت ظلِّ التنافساتِ الإعلاميةِ والشهواتِ الأفلاميةِ والمغالطاتِ الأفلاميةِ، لينفصمَ تماماً عن كلِّ شيءٍ يَمُتُّ إلى أمةِ الأخلاقِ

---

(١) «سنن الترمذي» (٢١٩٧) ، و«المستدرك على الصحيحين» (٨٣٥٤) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ، قال الذهبي في «التلخيص» : صحيح .

(٢) «صحيح البخاري» (٧٣٢٠).

والقِيَـم بِصِلَةٍ ، ويصيرَ المنكرُ معروفاً والمعروفَ منكراً.. وصار أسـعدُ الناس بالدنيا لُكَعُ بنُ لُكَعٍ[1].

واحتشـدَ الأبناءُ والبناتُ تحت مظلةِ الأغلاطِ والاختلاطِ، ليسـتثمروا القلقَ والإحبـاطَ، عِلماً وتعلمـاً وإعلاماً وثقافـةً واقتصاداً وحياةً اجتماعيـةً، فَرِحِينَ بمـا لا ينبغـي الفـرحُ به، مسـتنكفينَ عمـا لا يصحُّ الاسـتنكافُ عنـه، مندفعين إلى ما يَهْتِكُ الشـرفَ والفضيلةَ ويحرقُ الزهراتِ الجميلةِ.. إنه سـوقُ العرضِ والطلـبِ، المتـدرجُ مـن العلمانيـةِ إلـى العلمنـةِ إلـى العولمـةِ، علـى الطريقِ الإجباريِّ أو الاتجاهِ الإجباريِّ المشار إليه (إِلَىٰ جُحْرِ الضَّبِّ).

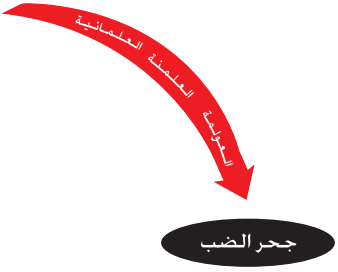

(١) كـما في الحديـث عن حذيفة بن اليـمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال : «**لا تقوم السـاعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع**»

إِنْقَاذُ مَا يُمْكِنُ إِنْقَاذُهُ.. (الإِعَادَةُ لِرُبَاعِيَّةِ الأَرْكَانِ)

قد لا يتفقُ منا اثنانِ على هذا الأمرِ المطروحِ للمعالجةِ، فالإنقاذُ متنوعُ الوسائلِ كتنوعِ الحالاتِ، ولكنَّ الأملَ معقودٌ على النجاةِ بنجاحِ أساليبِ الإنقاذِ وليس وسائلَها ولا حالاتِها، فهناك أطواقٌ تحمل مسمى (طوقَ النجاةِ) وهي أولُ أسبابِ الغرقِ، وهناك حالاتٌ لا تقتضي مَدَّ الأطواقِ فيما يبدو للعينِ حيث تصبحُ في ساعةٍ ما بؤرةَ الهلاكِ والموتِ المحققِ.

وأفضلُ الأساليبِ ما أجمع العقلاءُ على سلامتِه ونجاحِ العمل بهِ، و(العقلاءُ) وصفٌ يصعبُ إسقاطُه على الكثيرِ ولو كانوا يستحقون ذلك.

إنَّ الإنقاذَ لما يُمْكِنُ إنقاذُه مبدأٌ إسلاميٌّ خالصٌ، وله علاقةٌ وطيدةٌ بقول المصطفى ﷺ: «... **حَتَّىٰ إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ ... الحديث**»[1].

فلعلّ الكثيرَ يقفونَ عند عنوانِ الكتابِ ومحتواهُ ليُجَرِّدُوا القلمَ والدواةَ والقرطاسَ لإنقاذِ الناسِ من داءِ الكاتبِ وأفكارِه، ويعملوا ما استطاعوا في سبيلِ تحجيمِ هذه الفكرةِ ومنازعةِ الناس في قبولِها لسببٍ أو لآخرَ، ولا غَرْوَ في ذلك. وما لا يريدُه الخالقُ لن يُكتبَ له النجاحُ وإن أرادَه الناسُ، وما رَضِيَهُ الخالقُ سبحانه كُتب له القبولُ وإن عارضه الناس.

---

(١) سبق تخريجه في مطلع الكتاب.

فالناسُ مِنْ دَأْبِهِمْ رَدٌّ بلا سَبَبٍ فَكَيْفَ إِنْ ظَهَرَتْ أَسْبَابُ ما رَدَّا
وَكُلُّ مَـا أَذِنَ المَوْلَىٰ بِـهِ ظَهَرَتْ عَلَائِـمُ بِقَبُـولٍ زَادَهُ مـدَّا

والخويصةُ في الإسلامِ على معانٍ:

* خاصةُ الرجلِ أهلِه وذويهِ
* خاصةُ الرجلِ في أهلِه وذويهِ ومحبِّيه وتلاميذِه
* خاصةُ الرجلِ في أهلِه وذويهِ وجلسائِه الموافقينَ
* خاصةُ الرجلِ في أهلِه وذويهِ ومَن في دائرةِ عملِه ووظيفتِه
* خاصةُ الرجلِ في أهلِه وذويهِ وأهلِ مَحَلَّتِه وقبيلتِه وجنسِه

ويختلفُ الناس في مراتبِ الخويصةِ بمستويات التراتبِ الاجتماعيِّ والفكريِّ السائدِ.

وبهٰذه المعاني تُطرحُ قضيةُ الإعادةِ للركنيةِ الرابعةِ كإحدى وسائلِ الإنقاذِ لِمَا يمكنُ إنقاذه إِنْ لم تكنْ أَوَّلَها وأساسَ المعالجة لها.

والإعادةُ ليست مجردَ ترويجٍ لفكرةٍ بلغتْ بصاحبِها حَدَّ الهَوَسِ والإعجابِ، وإنما هي مشروعُ حلٍّ متكاملِ الشروطِ لأولي الألبابِ.

والرفضُ للشيءِ طَبْعاً لا علاقةَ له برفضِ الشيءِ شرعاً، والحقُّ أحقُّ أَنْ يُتَّبَع.

ولأنَّنا في معرضِ الإنقاذِ لما يُمكنُ إنقاذُه نضعُ للراغبينَ من أمةِ القرآنِ والسنةِ مشروعَ الإعادةِ الواعيةِ بدءاً بوحدةِ رباعيةِ الأركانِ، ومروراً بدراسةِ العلاماتِ الكبرى والوسطى والصغرى، ونهايةً بالتعريفاتِ والعباراتِ الحاويةِ على

مدلولاتِ **القراءةِ النبويةِ لتقسيم الأزمنةِ والعصورِ الثلاثة:**

* القسم الأولُ : عصرُ الرسالةِ والبعثةِ حتى الوفاةِ وانقطاعِ الوحيِ

* القسم الثاني : ما بعدَ انقطاعِ الوحيِ إلى قيامِ الساعةِ.

* القسم الثالثُ : من عَهْدِ البعثةِ وما سبقَها من مراحلِ التحوُّلِ إلى عهدِ آدمِ عليه السلام.

وقد تَناوَلْنا هذا التقسيمَ في كتابنا «الأُسُسِ والمُنْطَلَقاتِ» فليُراجعْ..

ومهمةُ هذه الدراسةِ قراءةُ التاريخِ مرتبطاً بالديانةِ وليس منفصلاً عنها ، فالماديِّون الملحدون والعِلْمَانِيُّون الكافرون والعَلْمَنِيُّون المندفعون والعَوْلَمِيُّون المنتفعونَ يقرؤُون التاريخَ قراءةَ أحداثٍ سياسيةٍ ووقائعَ إنسانيةٍ منفصلةٍ عن اللهِ وأوامرِه ونواهيه وكُتبه ورُسلِه واليومِ الآخرِ والقدرِ خيرِه وشرِّه ، وإنْ آمنَ بعضُهم بشيءٍ من ذلك فإيمانٌ مشوبٌ بعُنصُرَيِ الطبعِ والكفرِ المُؤَبْلَسِ[1] ، مما يُعيدُ القراءةَ مرة أخرى إلى تأليهِ المادةِ في الحياة، وتأليهِ العقلِ في الإنسانِ . والتأليهُ من وظائفِه رفضُ الغيبِ وما وراء الطبيعةِ وتفسيرُ ذلك بـ(علم الميتافيزقيا)، ثم إرضاخُ كلِّ شيءٍ للعقلانيةِ المجردةِ المرتبطةِ بالعلمانيةِ المشيّدَةِ[2].

والعلمانيةُ المشيَّدةُ كان لها الدورُ الفاعلُ في مجتمعاتِنا العربيةِ والإسلاميةِ

---

(١) الكفر المؤبلس: نسبة إلى أول كافر في التاريخ وهو إبليس الرجيم.

(٢) العلمانية المشيدة: مجموع التركيبات العلمية القائمة على النظريات العلمية المنطلقة بعيداً عن الإيمان بالنبوة والوحي والعصمة والمعجزة.

بُعيدَ سُـقُوطِ قرارِ الحكمِ الإسلاميِّ الواحدِ في أواخر العهدِ العثمانيِّ، بصرفِ النظرِ عن مسـألةِ فسـادِ الحكمِ أو عدالتِه، حيث سـادَ في هذه المراحلِ عنصرُ التأثُّرِ الانفعاليِّ بحضـارةِ المادةِ في الغربِ بعد ظهورِ مرحلةِ الثورةِ الصناعيةِ، وانسـاقَ المسـلمونَ عموماً نحوَ هٰذه العلمانيةِ اندفاعـاً وانتفاعاً حتى احتوتهمُ المرحلةُ وطَوَتْ فيهم وفي أبنائِهم وبناتِهم (آثارَ داءِ الأممِ).

وكانَ داءُ الأممِ ينخرُ في الواقعِ العربيِّ والإسـلاميِّ مرحلةً بعدَ أخرى ، بِدءاً بنقـضِ الحكـمِ، ثم قبضِ العلـمِ، ثم تقسـيمِ الأرضِ وإعادة ترسـيمِ حدودِها، ثـم عـزلِ المنهجيـةِ الأبويةِ عـن مواقـعِ التربيةِ والتعليـمِ لضمانِ صناعـةِ جيلِ الخدمـاتِ.. عُمَّـالِ المصانـعِ ومندوبِي الشـركاتِ المهيمنةِ علـى المقدَّرَاتِ، وإضعـافِ علاقـةِ هذه الشـرائحِ المغلوبةِ بديانتِها الشـرعيةِ وعِزَّتِهـا الإيمانيةِ، ليظهرَ دينُ النقضِ والقبضِ والصراعِ والنزاعِ المفتعلِ والمبرمجِ عالمياً.

إنها مؤامرةٌ بكلِّ المقاييسِ، ولكنَّ الضحايا لا يعلمون عن هذه المؤامرةِ شيئاً ما سِـوى التصفيقِ والتأييدِ لحَمَلَةِ القصعةِ الدسـمةِ رجاءَ الحصولِ على فُتاتِها المتناثرِ.

وواجبُنـا الشـرعيُّ أن نتحمـلَ مسـؤوليةَ الإعادةِ للقـراءةِ الشـرعيةِ من واقعِ الكتابِ والسـنةِ.. ونسـألَ الديانةَ: هل فيكِ ما يَشـفي الصدورَ ويشـرحُ الواقعَ الموتورَ؟ أم أنّ هذا قضاءٌ وقدرٌ لا مناقشةَ فيه ولا حوارَ ولا مراجعةَ؟ والمناقشُ والمحـاوِرُ والمراجعُ مُتَعَرِّضٌ لقضاءِ اللهِ وقَدَرِ اللـهِ ، ومُعتَرِضٌ على أمرِ الله في عبادِه.

إنَّ هٰـذا الفهمَ الغريبَ عن القضاءِ والقدرِ هو أَحَدُ شِـباكِ العلمانيةِ المسيَّسـةِ

لإحباطِ الأمةِ وتعطيلِ علاقتِها بالثوابتِ ، بل هو جزءٌ من التحريفِ الذي يُصِيبُ أمةَ القرآنِ والسنةِ في مراحلِ الغثاءِ والغلوِّ والجفاءِ.. وما أصيب به صدورُ الناس في قرارِ الحكمِ وقرارِ العلمِ إلا بعدَ عَزْلِهَا الأكيدِ عن دراسةِ القراءةِ التاريخيةِ المرتبطةِ بالديانةِ، أي: دراسةِ ثوابتِ الدين منفصلةً عن متغيراتِه، فظلَّ الجميعُ يعتقدون سلامةَ التديُّنِ حتى ولو كانوا وكلاءَ الشيطانِ في قَرارَيِ الحكمِ والعلمِ، فلغةُ القرآنِ والسنةِ لا تَصْمُتُ ولا يستطيع أحدٌ إخراسَها لأنها الورقةُ الشرعيةُ الأخيرةُ في العالم ، إذاً فلابد من احتوائها وتفريغِها وإدخالِها تحت المعطفِ العلمانيِّ المسيَّس، وتجهيزِ العملاءِ والوكلاءِ من مدارسِ القبضِ والنقضِ كي يُؤَدُّوا الدورَ العمليَّ والعلميَّ لإحداثِ التغييرِ ومن دون ضوضاءٍ ولا صخبٍ ولا حربٍ ولا قتالٍ ونَصَبٍ.. فكانتِ العلمانيةُ.. ثم أَوْلَدَتْ في المجتمعِ منهجيةَ العَلْمَنَةِ، وظلَّتْ حرةَ الحركةِ محميةَ المنطلقِ حتى برزتْ مرحلةُ العولمةِ.. وها هي العولمةُ تُدَمِّرُ كلَّ شيءٍ بأمرِ ربِّها.

إنَّ تفسيرَ الركنِ الرابعِ للدمارِ لا يعني رفضَ العلمِ والحضارةِ، وإنما رفضُ جعلِها (حصانَ طَرْوَادَة) لبلوغِ آمال استعماريةٍ وفتوحاتٍ استثماريةٍ، ولكي تُفْقِدَ المسلمَ البسيطَ والمواطنَ المُنْهَكَ قدرةَ الحصولِ على الطعامِ والشرابِ والمالِ والأعمالِ إلا بإذنٍ وإمضاءٍ من الشركاتِ المانحةِ والعقلياتِ الجامحةِ.

هاكُم مثلاً حَيّاً للعولمةِ . وأسواقُ العرضِ والطلبِ تَفْتَحُ الأبوابَ على مصراعيها لإستثمارِ السواحلِ والبحارِ.. وهاهمُ الصيادونَ بوسائلِهِم الحديثةِ يقتلعون المصايدَ السمكيةَ من جذورِها ويحملون ما اقتلعوهُ في بواخرِهم ومراكبِهم نحو تحقيقِ المكاسبِ في أسواقِ المزادِ.. والمواطنُ المُتَنَقِّلُ بقدميهِ

علـى سـاحلِ البحرِ يتمنَّى سـمكةً من بحرِ وطنِـه وبلادِه، وإن حصل على شـيءٍ من ذلك فبزيادةٍ في الأسـعار، وعناءٍ في الانتظارِ.. وهذا مجردُ مثالٍ، أما الحقيقةُ المُرَّةُ فهي أشدُّ مرارةً من كلِّ عَلْقَمٍ.

والمواطنون يَدْفَعُ بعضُهم ببعضٍ كي يُفْسِـدُوا علاقاتِهم بالنظامِ أو المجتمعِ مطالِبينَ برخصِ الأسعارِ وتحقيقِ المطالبِ، والنظامُ يستشعرُ الثورةَ والاستفزازَ مع كلِّ جريمةٍ اقتصاديةٍ يتجرعُها المواطنُ الملتاعُ، فلا هو حَقَّقَ الاستقرارَ ولا هو امتلكَ أَزِمَّةَ القرارِ.. إنها العولمةُ.. (سياسةُ الشيطانِ في بني الإنسانِ).

قال لي بعضُهم: لقد أزعجتُم الشـيطانَ بتحميلِه كافةَ المسؤولياتِ، وتَنَصَّلْتُمْ بهٰذا عن مسؤولياتِكم المناطةِ بكم، ورَكَنْتُمْ إلى تبريرِ الخطأِ وإلصاقِه بالمخلوقِ اللامرئي، وهذا تَخَلُّفٌ وجاهليةٌ!

والإجابةُ الواعيةُ تُسـاءِلُنا جميعاً: هل الشـيطانُ مخلوقٌ حقيقةً أم مجردُ وَهَمٍ؟ فـإنْ قيلَ: الشـيطانُ مخلوقٌ حقيقـيٌّ، إذا فلابد من التعـرُّفِ على هُوِيَّتِهِ ونشـاطِه وسياسـتِه وقدراتِه وما تهيأَ له من الوسـائلِ والأسـبابِ لإنجاحِ مشاريعِه. وأما إن كان مجـردَ وَهَمٍ فالوَهَمُ غيرُ الحقيقةِ، والحالمون في بحارِ الخيالاتِ والتهيؤاتِ همُ الفاشلون حقاً في الحياتينِ.

فأين الجواب الحقُّ؟ إنه الإيمانُ بوجودِ المخلوقِ العاتي «هيمنةِ الشيطانِ»، وأنَّه في هيمنتِه عـدوٌّ للآدميةِ.. ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾[طه:١١٧]. والعدوُّ مـن صفتِـه الخيانـةُ والاعتـداءُ والاجتثـاثُ.. ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر:٦]، فمَن هٰذا الذي اتخذَ الشيطانَ عَدُوّاً لَدُوداً؟ ومتىٰ بدأتْ في أمةِ القرآنِ والسنةِ سياسةُ النفيِ للمخلوقِ اللامرئيِ؟

إنَّ هـذه السياسـةَ كانـتْ منتشـرةً فـي غيرِ المسـلمين من أهـلِ الإلحـادِ والماديةِ المجـردةِ، أو فـي المسـلمين الذيـنَ لا يقـرؤُون دينَهـم ولا قرآنَهـم ولا يأتمـرونَ بالمعـروفِ ولا ينتهـونَ عـن المنكرِ ، ممـن اندرجوا تحت سياسـةِ الاسـتتباعِ. أما المسـلمونَ المؤمنـونَ فيعلمون أنّ وعـدَ اللهِ حَقٌّ، وأن الوجودَ ملـيءٌ بالخَلقِ، وأنَّ الشـيطانَ مخلـوقٌ متمردٌ على اللهِ كافرٌ به متربصٌ بنا منذ عهـدِ بدءِ الخليقةِ إلى يوم يُنْفَخُ فـي الصـورِ.. ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾[ص:٧٩-٨١].

إذاً كيف نتعلمُ أثرَ الشيطانِ وموقعَه من حياةِ البشـريةِ؟

إنَّ موقـع العلم به وبأخباره هو فقه التحـولات ومادة الركن الرابع من أركان الديـن ، و هـذا المعنى مؤيد من القرآن والسـنة. فالانحراف بـكل صُوَره ـ في تاريخنا الإنسـاني عموماً وتاريخنا الإسـلامي خصوصاً ـ مكسب من مكاسب الشـيطان يعمل على تحقيقـه وإنجاحه ليل نهـار.. ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[فاطر:٦].

وللشيطان صولة وهيمنة على الكافر قبل المسلم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[مريم:٨٣]، لأنَّ الكفر كما سـبقت الإشـارة عقيدة الشيطان ولا ذنـب أعظم مـن الكفر، ولهذ ولع وكلاء الشـيطان في أمـة القرآن بإلصاق تهمة الكفر والشـرك بالشـبهات علـى كثير من المسـلمين ، فدافعوا عن الكفر الإنسـاني فـي اليهـود والنصارى وأمـم الإلحاد والإفسـاد العقـدي أجمعين، وجعلوهـم أوليـاء لهـم مـن دون اللـه يتقربـون إليهـم ويُقلِّدونهم ويسـوِّقون بضائعهم وثقافاتهم وأفكارهم وهوياتهم وغواياتهم وألاعيبهم، حتى موضات

نسائهم وبناتهم، ويُعجبون كل الإعجاب بهم وبأخبارهم وأحوالهم وبلادهم، فهم لرجالهم أسوة ولنسائهم قدوة، والشواهد على هذا لا تحتاج إلى أدلَّة ولا براهين، وإنما تحتاج إلى قراءة الواقع الإسلامي والعربي المشين.. وكل هذا من عمل الشيطان في الشعوب.. ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾[الكهف:٥٠].

إنَّ فقهَ التحولاتِ كفيلٌ بإبرازِ العلمِ المكنونِ، وإظهارِ الحقيقةِ التي سَكَتَ عنها الأولون، ووضعِ الأمورِ في نصابِها، والدخولِ إلى المعالجة من أبوابِها.. ولِلّهِ في خلقِه شؤونٌ.. ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢][1].

(١) وقد تتبعنا في كتابنا «التكوين الآدمي» وسائل الشيطان مع بني الإنسان من خلال نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة، فوجدناها نافت على المئة، ومنها (الاحتناك) ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ ﴾[الإسراء:٦٢]، والجلب ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ ﴾[الإسراء:٦٤] وغير ذلك.

مَاذَا بَعْدَ العَوْلَمَةِ عَلَى ضَوْءِ دِرَاسَةِ الرُّكْنِ الرَّابِعِ ؟

إنَّ مِـن مهمـاتِ الركنِ الرابعِ مـن أركانِ الدينِ وقراءةِ تفاصيـلِ عِلمِه وأدلتِه كشفُ الحقائقِ المغيَّبةِ عن عقولِ المسلمين، وخاصةً ما يتعلقُ بكيدِ الشياطينِ وأضاليـلِ المفسـدينِ فـي أمرِ الدنيـا والدينِ، حتـى لا يُصابَ المـرءُ يومَ يلقى ربَّه بالإحباطِ الذي لا علاجَ له ، والفشـلِ الذي لا نجاحَ بعده. فكما قسَّـم فقهُ التحولاتِ **مسيرةَ العصرِ الغثائيِّ** إلى خمسة أقسام:

* مَرْحَلَةُ الأَحْلَاسِ ، الاِسْتِكْبَارُ وَالاِسْتِظْهَارُ[1] ، وفيها عَلَامَاتٌ وُسْطَىٰ وَصُغْرَىٰ
* مَرْحَلَةُ السَّرَّاءِ[2] ، الاِسْتِعْمَارُ – العِلْمَانِيَّةُ ، وفيها عَلَامَاتٌ وُسْطَىٰ وَصُغْرَىٰ
* مَرْحَلَةُ الدُّهَيْمَاءِ[3] ، الاِسْتِهْتَارُ – العَلْمَنَةُ ، وفيها عَلَامَاتٌ وُسْطَىٰ وَصُغْرَىٰ
* مَرْحَلَةُ الفِتْنَةِ الرَّابِعَةِ[4] ، الاِسْتِثْمَارُ – العَوْلَمَةُ ، وفيها عَلَامَاتٌ وُسْطَىٰ

---

(١) وهـي مرحلـة المناوشـة ومحاولة الاختراق العسـكري والاسـتشراقي ، وتعريفها ورد في أبوداود (٤٢٤٢): «**هِيَ هَرَبٌ وَحَرَبٌ**»، وهي مرحلة مطابقة لبداية ظهور الآلة ومرحلة الامتداد الاستعماري ، وتتداخل مع مرحلة الغزو البرتغالي لسواحل البلاد العربية طمعاً في السيطرة عليها.

(٢) وهي مأخوذة من الحديث الماضي ، راجع «المنطلقات» ص٢١٦-٢١٨.

(٣) وهـي مأخـوذة من الحديث الماضي ، وتتمته «**ثم فتنة الدهيماء لا تدع أحدا من هذه الأمة إلا لطمته لطمة** »، راجع «المنطلقات» ص٢٤٤-٢٤٥.

(٤) التي يؤول أمر الأمة فيها إلى الكفر، راجع «المنطلقات» ص٢٤٧-٢٤٨.

وَصُغْرَىٰ

* مَرْحَلَةُ الصَّيْلَمَةِ الاِسْتِفَارُ ثُمَّ السُّفْيَانِيَّةُ الأُولَىٰ وَالثَّانِيَةُ ، وفيها عَلَامَاتٌ وُسْطَىٰ وَصُغْرَىٰ

فإنه يضعُ للإسلامِ الحقِّ قِسماً واحداً لا يتعددُ ولا ينفصمُ ولا ينفصلُ.. إنه مسمَّى **(العالميّةِ)**.

والعالميةُ من صفتِها الثباتُ وعدم التبدلِ والتبديلِ في القواعدِ والثوابتِ، وإنما يعتريها التبدلُ في الوسائلِ والآليَّاتِ، وإذا ما ضَعُفَ المسلمون عن معرفةِ وتطبيقِ ودراسةِ عالميتِهمُ الشرعيةِ فإنما يعودُ ذلك لسياسةِ الاستحواذِ التي عَبَّر عنها القرآن بقوله: ﴿**ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ**﴾[المجادلة:١٩]. **وعالميتُنا الإسلاميةُ قائمةٌ بالكتابِ والسنةِ، وعلمانيةُ الكفرِ وما تلاها قائمةٌ بالشرعيةِ الدوليةِ**، وهذا ما يجبُ تفصيلُه.

فهناك **شرعيةٌ دوليةٌ** قائمةٌ على سياسةِ التداولِ السياسيِّ للسلطةِ.. ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ**﴾[آل عمران:١٤٠]، وهنا في الإسلام شرعيةٌ عالميةٌ قائمةٌ على الوحيِ والرسالةِ.. ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الجاثية:١٨].

وخَلْفَ الشرعيةِ الدوليةِ **دجاجلةٌ ودَجْلٌ ودَجَّالٌ**، ورجالُ مالٍ وأعمالٍ، منهم من يَعْلَمُ بوظيفتِه ومنهم من لا يعلم شيئاً غير الاتّباعِ والاستتباعِ. ومنهم في عالمنا الإسلامي والعربي قومٌ كثرٌ مُنَفِّذُونَ ومُتَنَفِّذُون، سواءً في قرارِ الحكمِ أو في قرارِ العلمِ. ولهم شؤونٌ وشأنٌ في عالمِ الشرعيةِ الدوليةِ. أما **الشرعيةُ العالمية (عالميةُ**

الإسلامِ) فكتابٌ وسنةٌ وأخلاقٌ، وحَمَلَةٌ عُدُولٌ، وشعوبٌ مؤمنةٌ مسلمةٌ.

و**العدولُ** في عالميةِ الإسلامِ هُمُ المعنيّون بقولهِ ﷺ: «**يَحْمِلُ هٰذَا العِلْمَ** [أي: بِأَرْكَانِهِ الأَرْبَعَةِ[1]] **مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الغَالِينَ ، وَانْتِحَالَ المُبْطِلِينَ ، وَتَأْوِيلَ الجَاهِلِينَ**»[2].

وبينَ عولمةِ الأممِ والشعوبِ وعالميةِ الإسلامِ في الأممِ والشعوبِ أمورٌ مُشْتَبِهَاتٌ ومُتَشَابِهَاتٌ، «**فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَىٰ يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ**»[3].

هكذا يفسرُ فقهُ التحولاتِ مسيرةَ الحياةِ، ولا نجدُ **تفسيراً لمسيرةِ الحياةِ التاريخيةِ الشرعيةِ** في غيره سوى ما يُعرف في علمانيةِ الأبالسةِ **بالتفسيرِ الماديِّ للتاريخِ** ، ولأن التحديَ بين علمانيةِ الأبالسةِ وعالميةِ الإسلامِ أزليُّ المعركةِ؛ فالتاريخُ الماديُّ المجردُ نِتَاجُ كُفْرِ الشيطانِ ومنهجُ مدرسةِ الماديةِ الكافرةِ الملحدةِ ، أما التاريخُ الإنسانيُّ والإسلاميُّ والعربيُّ المرتبطُ بالديانةِ الشرعيةِ – ديانةِ النبوةِ والأخلاقِ والعبادةِ – فثمرةٌ واعيةٌ من الانقيادِ والاستسلامِ للأحكامِ الشرعيةِ.

---

(١) الزيادة ما بين المعقوفين (بأركانه الأربعة) ليست من نص الحديث بل لمجرد الإيضاح الذي لابد منه في ربط الحديث برباعية الأركان ؛ لأن كلمة الدين تعني (أركانه)، وهي في حديث أم السنة (حديث جبريل) أربعة أركان. وهذه الرباعية هي محور تناولنا كله.

(٢) سبق تخريجه في بداية الكتاب.

(٣) «صحيح مسلم» (١٥٩٩) ، وفي «صحيح البخاري» (٥٢) من غير [وقع في الحرام] .

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾[آل عمران:١٩].

إذاً والأمرُ كذلك وعالميةُ الإسلامِ تقرأُ التاريخَ مرتبطاً بالديانةِ فأين موقعُ المستقبلِ بعدَ مرحلةِ العولمةِ المهيمنةِ اليومَ؟

إنه أمرٌ يصعبُ الإفصاحُ عنه والتبيينُ، ليس لأنه غيرُ معلومٍ وإنما لكونِه يعودُ بنا إلى مقولةِ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ لَقُطِعَ مِنِّي هَذَا الْبُلْعُومُ)[1]، وقطعُ البلعومِ إما بالسيفِ، وإما بضرورةِ الصمتِ اختياراً أو إجباراً.

فهل كان أبو هريرةَ معذوراً في صمتِه؟ وهل صَمَتَ أبو هريرة وحدَه أم صَمَتَ أيضاً كبارُ الصحابةِ وأئمةُ آلِ البيتِ؟ وإذا ما صَمَتُوا في عهد العالميةِ الأولى والألويةُ الإسلاميةُ معقودةٌ؛ فعذرُنا واضحٌ في صمتِنا فيما يجب فيه الصمتُ.. حيث لا عالميةَ للإسلام ولا ترى له ألويةً معقودةً.. وإنما هناك مجالٌ لإبرازِ ما يمكنُ إبرازُه بالإجمالِ .

ومن هذا الإبرازِ ما قرَّره فقهُ التحولاتِ من موعوداتِ المستقبلِ وما أُطلقَ عليه في قاموسِ التعريفاتِ: مرحلةُ الاستعمارِ، والاستهتارِ، والاستثمارِ التي نحنُ اليومَ في أَوْجِ متناقضاتِها ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الروم:٤-٥]. ومِن مشيئتِه العليا بعدَ انقضاءِ أمرِه في عبادِه أَنْ تَدخُلَ

(١) سبق تخريجه.

الأمـةُ – وقـد كادتْ – إلى مرحلـةِ (**الاسـتنفارِ**)، وهي مرحلةٌ مجهولـةُ العددِ الزمنيِّ، إلا أنها تكادُ أن تُبْرِزَ مظاهرَها اليوم من خلال هَبَّاتِ الشـعوبِ المعبأةِ وغليانِها ضـدَّ بعض الأنظمة ورموز الجماعات والأحـزاب، وبنماذجَ متنوعةٍ من المتناقضاتِ وأسبابِ المنافسةِ والتحريشِ (دينيةً ودنيويةً)، لتشيرَ إلى بدايةَ التحول من مرحلة الاستثمار إلى مرحلة الاستنفار المشارِ إليها سلفاً.

وهي المرحلة التي لا يَعْلَمُ مقدارَها إلا بارئُ الأرضِ والسماواتِ، وهي المرحلة الموعودة في علامات السـاعة باحتوائها على نهاية مرحلة العولمة واسـتثماراتها والدخول إلى (الاستنفار) وإثارة الشعوب حتى تبلغ فتنها إلى الشام، وعندها تبدأ مرحلـةُ (الصَّيْلَمِ) أو (الصَّيْلَمَةِ)، والصيلم أو الصيلمة مأخوذة من معنى الحديث المـرويِّ عـن المصطفـى ﷺ: «**يكونُ فـي الأمةِ خمسٌ** ـ أي: مـن الفِتَـنِ وذَكَرَ الأربعَ ـ ثم قال: **وبَقِيَتْ واحدةٌ وهي الصَّيْلَمُ**». ثم قال الراوي: (وهي فيكم يا أهل الشـام، فـإن أدركتَها فإنِ اسـتطعتَ أن تكونَ حَجَراً فَكُنْـهُ، ولا تكنْ مع واحدٍ من الفريقين.. وإلَا فاتخذْ نَفَقاً في الأرض[1]) وفي رواية: فقلنا: أنت سمعتَ هذا من النبي ﷺ؟ قال: نعم. والمقصود بقوله: (وهي فيكم يا أهل الشـام) أنها فتنةٌ تبدأُ في موقع آخر ثم تتسعُ حتى تبلغَ الشامَ، فعندها تسمى الصَّيْلَمَ.

ويؤيـد ذلك مـا أُثِرَ عنِ ابنِ مسـعودٍ: (كُلُّ فتنةٍ شَـوًى[2] حتى تكونَ بالشـام، فإذا كانتْ بالشـام فهـي الصَّيْلَمُ، وهي الظُّلمَةُ)[3]، ومعنـى الصَّيْلَمِ: الدَّاهِيَةُ أو

---

(١) مسند أحمد (٢٠٦٩٦).

(٢) شوى الشيء أطرافه، وهي هنا بمعنى الشيء الهين اليسير الذي يصيب الأطراف.

(٣) الفتن لنعيم بن حماد (٦٥٩).

الكارثةُ التي تستأصلُ كل شيءٍ.

ولِتَلِيَهَا على مدىً معيَّنٍ مرحلةُ (**الاستقرارِ**)، حتى تكون ، وتنقطعُ المرحلةُ المستقرةُ بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وانتقالِه إلى عالمِ ربِّه، لتبدأَ مرحلةُ (**الانحدارِ**) ثم (**الانهيارِ**).. وسبحانَ مقلِّبِ الليلِ والنهارِ، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾. [آل عمران:١٣] .﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢].

ثبت المصادر

١. القرآن الكريم .
٢. صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل البخاري تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة ، ط:الأولى، ١٤٢٢هـ .
٣. صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت : ٢٦١هـ) ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي .
٤. سنن أبي داود ، أبو داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ) ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا .
٥. السنن الكبرى ، أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية، ط: الثالثة، ١٤٢٤ هـ .
٦. مسند الإمام أحمد ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت : ٢٤١هـ) ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون ، إشراف: د عبد الله عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة ط: الأولى، ١٤٢١ هـ .
٧. كتاب الفتن ، أبو عبد الله نعيم بن حماد المروزي (ت: ٢٢٨هـ) ، تحقيق : سمير أمين الزهيري ، مكتبة التوحيد ، ط: الأولى، ١٤١٢.
٨. سنن أبي داود ، أبو داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ) ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا .
٩. سنن ابن ماجه ، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت: ٢٧٣هـ) ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية .
١٠. سنن الترمذي ، محمد بن عيسى الترمذي (ت: ٢٧٩هـ) ، تحقيق وتعليق :أحمد شاكر ، ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ط : الثانية .
١١. المعجم الكبير ، سليمان بن أحمد الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت: ٣٦٠هـ) ، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي ، مكتبة ابن تيمية – القاهرة ، ط: الثانية .
١٢. المستدرك على الصحيحين ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ) ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ط : الأولى

، ١٤١١هـ .
١٣. صحيح ابن حبان ، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان ، البُستي (ت: ٣٥٤هـ) ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط: الأولى، ١٤٠٨ هـ .
١٤. التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة ، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت: ٦٧١هـ) ، تحقيق ودراسة الدكتور: الصادق بن محمد بن إبراهيم ، مكتبة دار المنهاج ط: الأولى، ١٤٢٥ هـ .
١٥. السنة ، أبو بكر بن أبي عاصم الشيباني (ت: ٢٨٧هـ) ، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي – بيروت ، ط: الأولى، ١٤٠٠ .
١٦. المعجم الأوسط ، سليمان بن أحمد الشامي الطبراني (ت: ٣٦٠هـ) ، محقق: طارق بن عوض اللهأ وعبدالمحسن الحسيني ، دار الحرمين – القاهرة .
١٧. سلسلة الأحاديث الصحيحة ، محمد ناصر الدين الألباني (ت: ١٤٢٠هـ) ، مكتبة المعارف ط: الأولى .
١٨. الجامع الصغير جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي .
١٩. حلية الأولياء ، أبو نعيم أحمد الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ) ، دار الفكر .
٢٠. تصحيفات المحدثين ، الحسن بن عبد الله العسكري (ت: ٣٨٢هـ) ، تحقيق: محمود أحمد ميرة : الطبعة العربية الحديثة ط: الأولى، ١٤٠٢ .
٢١. مسند أبي يعلى ، أبو يعلى أحمد بن علي الموصلي (ت: ٣٠٧هـ) ، تحقيق: حسين سليم أسد ، دار المأمون ط: الأولى، ١٤٠٤ .
٢٢. الزهد الكبير ، أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) ، تحقيق: عامر أحمد حيدر ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ط: الثالثة، ١٩٩٦ .
٢٣. دلائل النبوة ، أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) ، دار الكتب العلمية ط: الأولى – ١٤٠٥ هـ .
٢٤. إتحاف الجماعة ، حمود بن عبد الله التويجري (ت: ١٤١٣هـ) ، دار الصميعي ط: الثانية، ١٤١٤ هـ .
٢٥. صحيح الجامع الصغير وزياداته ، محمد ناصر الدين الألباني (ت: ١٤٢٠هـ) ، المكتب الإسلامي .
٢٦. السنن الواردة في الفتن ، عثمان بن سعيد الداني (ت: ٤٤٤هـ) ، تحقيق: د.

رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري ، دار العاصمة ط: الأولى، ١٤١٦ .
٢٧. الزهد ، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت: ٢٤١هـ) ، دار ابن رجب ، ط: الثانية، ٢٠٠٣ م
٢٨. الكامل في ضعفاء الرجال ، أبو أحمد بن عدي الجرجاني (ت: ٣٦٥هـ) ، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود-علي محمد معوض ، الكتب العلمية ، ط: الأولى، ١٤١٨هـ١٩٩٧م .
٢٩. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت: ٨٠٧هـ) ، تحقيق: حسام الدين القدسي مكتبة القدسي ١٤١٤ هـ .
٣٠. المغني عن حمل الأسفار ، زين الدين العراقي (ت: ٨٠٦هـ) ، دار ابن حزم ، ط: الأولى، ١٤٢٦ هـ .
٣١. إتحاف الخيرة المهرة ، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر البوصيري الشافعي (ت: ٨٤٠هـ) ، تحقيق دار المشكاة للبحث العلمي ، دار الوطن ، ط: الأولى، ١٤٢٠ هـ .
٣٢. الأدب المفرد ، محمد بن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦هـ) ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار البشائر الإسلامية ، ط: الثالثة، ١٤٠٩ هـ .
٣٣. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، علاء الدين علي بن حسام الدين الشاذلي الهندي (ت: ٩٧٥هـ) ، تحقيق: بكري حياني - صفوة السقا ، مؤسسة الرسالة ، ط الخامسة، ١٤٠١هـ.
٣٤. شرف أصحاب الحديث ، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ) ، تحقيق: د. محمد سعيد خطي اوغلي ، دار إحياء السنة النبوية .
٣٥. المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم ، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ) ، تحقيق: محمد حسن الشافعي ، دار الكتب العلمية ط: الأولى، ١٤١٧هـ .
٣٦. تاريخ دمشق ، أبو القاسم علي بن الحسن المعروف بابن عساكر (ت: ٥٧١هـ) ، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي ، دار الفكر ، ١٤١٥ هـ .
٣٧. المصنف ، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الحميري الصنعاني (ت: ٢١١هـ) ، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي ، المكتب الإسلامي ط: الثانية ، ١٤٠٣ .

الفهرس

وَجْهُ التَّنَاوُلِ ٩
مَفْهُومُ الإِعَادَةِ ١١
تَفْصِيلُ مَرَاتِبِ عِلْمَيِ الإِيْصَالِ: (وَسَائِلِ التَّعَبُّدِ وَمَسَائِلِ الإِيمَانِ) ١٢
تَفْصِيلُ مَرَاتِبِ عِلْمِ الوُصُولِ (مَقَامَاتُ التَّحَقُّقِ وَثَمَرَاتِ الأَعْمَالِ) ١٤
تَفْصِيلُ عِلْمِ المُتَغَيِّرَاتِ (فِقْهِ التَّحَوُّلَاتِ): الرُّكْنِ الرَّابِعِ ١٧
أَقْسَامُ العِلْمِ بِعَلَامَاتِ السَّاعَةِ ١٨
فِقْهُ النَوَاقِضِ وَالنَّقَائِضِ وَأَسْبَابُ الفِتَنِ ومُضِلَّاتِها ٢٠
فِقْهُ الإِشَارَاتِ وَالبِشَارَاتِ وَالنُّذَارَاتِ وَالحَصَانَاتِ وَشَرَفِ العَدَالَةِ وَالسَّنَدِ ٢٧
فِقْهُ مُسْتَجَدَّاتِ العُلُومِ النَّظَرِيَّةِ وَالتَّطْبِيقِيَّةِ وَالثَّقَافَاتِ ، وَمَا يَخُصُّ الإِعْجَازَ العِلْمِيَّ وَالمَعَارِفَ المُتَنَوِّعَةَ السَّلْبِيَّةَ وَالإِيجَابِيَّةَ (النَّظَرِيَّاتِ وَآلِيَّاتِ التَّطْبِيقِ) ٣١
فِقْهُ الأَشْرَاطِ الكَوْنِيَّةِ وَالمَلَاحِمِ ٣٢
فِقْهُ الرَّبْطِ الشَّرْعِيِّ بَيْنَ الدِّيَانَةِ وَالتَّارِيخِ ٣٣
رَبْطُ الدِّيَانَةِ بالتَّارِيخِ وَعَلَاقَةُ ذٰلِكَ بالرُّكْنِ الرَّابِعِ ٣٦
سُنَّتَا المَوَاقِفِ وَالدَّلَالَةِ وَعَلَاقَتُهُمَا بالرُّكْنِ الرَّابِعِ ٤١
الوَحْدَةُ الشَّرْعِيَّةُ لِأَرْكَانِ الدِّينِ الأَرْبَعَةِ ٥٣
تَعْرِيفَاتُ فِقْهِ التَّحَوُّلَاتِ وَعَلَاقَتُهَا بِرُبَاعِيَّةِ الْأَرْكَانِ ٥٧
إِعْذَارُ الأَئِمَّةِ السَّابِقِينَ فِي عَزْلِهِمُ الرُّكْنَ الرَّابِعَ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ ٦٢
سَلَامَةُ الأُمَّةِ قَضِيَّةٌ مَرْهُونَةٌ بِدِرَاسَتِنَا الوَاعِيَةِ لِلرُّكْنِ الرَّابِعِ ٦٦
* فُقْدَانُ القَرَارِ ٦٦
* فُقْدَانُ الهُوِيَّةِ ٦٧
* فُقْدَانُ الكَرَامَةِ ٦٨

* فُقْدَانُ الأَجْيَالِ ٦٩
إِنْقَاذُ مَا يُمْكِنُ إِنْقَاذُهُ.. (الإِعَادَةُ لِرُبَاعِيَّةِ الأَرْكَانِ) ٧١
مَاذَا بَعْدَ العَوْلَمَةِ عَلَىٰ ضَوْءِ دِرَاسَةِ الرُّكْنِ الرَّابِعِ ؟ ٧٩